

الشواهد الشعرية في خطب الجمعة المنبرية؛ في المملكة العربية السعودية، مجموعة "منبريات" لأحمد بن صالح السديس نموذجًا؛ دراسة وصفية تحليلية
اعداد

د/عامر بن مقحم بن محمد المطيري
أستاذ اللغة العربية المساعد في قسم اللغة العربية - كلية الشريعة والحقوق
جامعة الشقراء - المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث الشواهد الشعرية في خطب الجمعة المنبرية؛ مجموعة "منبريات" لأحمد بن صالح السديس نموذجًا، وهي دراسة وصفية تحليلية حاول الباحث من خلالها تتبع الشاهد الشعري في خطبة الجمعة في المدونة المختارة، موضحًا علاقته بالسياقات والقضايا المصاحبة، ومدى ضرورته في تحقيق المقصد المراد من الخطبة، وأهميته في تقوية السياق، وإثبات الحجّة، وتأثيره على السامع بالإقناع، فضلًا عن أهميته في بيان نجاح الخطيب في اختياره ومقاله ومناسبته للسياق الذي استدعاه فيه بواسطة الموضوعات المُساق في طياتها، واستعمالاته، وتكويناته الفنية والوظيفية. ليخرج البحث بعدة نتائج أهمها الحضور البين للشاهد الأدبي عمومًا والشعري خاصّة، في كتب الخطب المنبرية بشكل يلفت نظر النقد الأدبي، ويجعل من دراسته ضرورةً علميةً لذلك الشاهد المتنوع في موضوعه الكثيف في حضوره، فضلًا عن التأثير الكبير للشاهد الشعري في استمالة المتلقين والتأثير فيهم وتقوية الحجّة التي أراد الخطيب إيصالها، كما يغلبُ على الشاهد الشعري في خطبة الجمعة في عينة الدراسة، الشيوخ والتداولية السائرة في مقولة العامّة والخاصة؛ ممّا يجعله قريبًا وحاضرًا في ذهن الخطيب عند تحضيره لخطبته، وكذا عند ارتجاله وتمثله؛ ولذلك نجد غيابًا ظاهرًا في بعض المواقف والموضوعات للشاهد الأجود معنًى وتركيبًا وصورة.

الكلمات المفتاحية: الشاهد الشعري، خطبة الجمعة، القضايا الموضوعية، القضايا الفكرية، القضايا الاجتماعية، السمات الفنية.



Poetic evidence in the pulpit Friday sermons: In the Kingdom of Saudi Arabia, the collection 'Minbariyat' by Ahmed bin Saleh Al-Sudais is an example. Descriptive and analytical study

D. Amer bin Muqhem bin Muhammad Al-Mutairi

Assistant Professor of Arabic Language in the Arabic Language Department, College of Sharia and Law, Shaqra University, Kingdom of Saudi Arabia

Email : a.almotairi@su.edu.sa

Abstract:

This research deals with the poetic evidence in Friday sermons. The 'Minbariyat' collection by Ahmed bin Saleh Al-Sudais is an example. It is a descriptive and analytical study through which the researcher tried to trace the poetic witness in the Friday sermon in the selected blog, explaining its relationship to the accompanying contexts and issues, the extent of its necessity in achieving the intended purpose of the sermon, and its importance in strengthening the context and proving the argument. And its impact on the listener with persuasion, in addition to its importance in explaining the success of the orator in his choice and essay and its suitability to the context in which he called for it through the topics discussed within it, its uses, and its artistic and functional formations. The research produces several results, the most important of which is the clear presence of the literary witness in general and the poetic witness in particular, in the books of pulpit sermons in a way that draws the attention of literary criticism, and makes studying it a scientific necessity for that diverse witness in its dense topic in its presence, in addition to the great influence of the poetic witness in winning over the recipients, influencing them, and strengthening the argument. What the preacher wanted to convey, just as the poetic witness in the Friday sermon in the study sample, is dominated by commonness and pragmatics prevailing in the concept of public and private; Which makes it close and present in the mind of the orator when he prepares his sermon, as well as when he improvises and acts; Therefore, we find a clear absence in some situations and topics of the best witness meaning, structure, and image.

Keywords: poetic witness, Friday sermon, thematic issues, intellectual issues, social issues, artistic features.

تقديم:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد،،

فإنَّ ممَّا يدعو للتأمل والبحث العلميّ الحضور الأدبيّ للشعر والمثّل والحكمة والقصة في السياقات الوعظية عامة، وفي خطب الجمعة بشكل خاصّ؛ حيث إنّ هذا الحضور يعكس أثرًا أنيًّا في نفس المتلقي؛ ربّما يزول مع انحسار سياقها في الحياة والأحداث والمواقف، وقد يزداد توهُّجها وأثره في كلّ حين يستدعي ذلك الحضور الأدبي. والشعرُ بشواهد المتداولة يمكن أن يصوّر لنا هاتين الحالتين بشكل واضح قريب، فعندما يتضمّن الخطابُ الدينيّ حدثًا عابرًا، ويسوق معه قول الشاعر كما هو معهود ومتداول:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ فَلَا يُعْرُ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ^(١)

فهنا استسلام وإيمانٌ بحقيقةٍ مسلمة، لكنّها تندثر سريعًا مع زحمة الحياة وضجيج المادّة، والانغماس في الصّخب المتجدّد بازدياد.

أمّا إذا كان السّياقُ الوعظيّ -خطبة الجمعة- يحكي جُرْحًا داميًّا كتَبَ اللهُ خلوده إلى فناء الدُّنيا، كفقد السّراج المنير محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم، فيأتي بقول حسان:

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ^(٢)

ولذلك يعجز السّياق النثري - في الخطبة وفي غيرها- أن يمدنا بمثل هذا الشاهد في مثل هذا المقام؛ لتأثيره وقوته وإيجازه ورسالته في تحقيق المقصد المراد بنصّ شعريّ اقتضى القطعيّة في الحكم ماضيًا ومستقبلاً.

لقد أثبت الشاهد الشعريّ أثره ودوره في الخطاب النثريّ عامّة، لكنّه في خطبة الجمعة أكثر أثرًا، وأكبر دررًا، وأعظم مهمّة؛ لأنّه يستدعي ما يعجز عن استدعائه خيالاتُ الكُتّاب والروائيين وغيرهم، ويختصر في وزنه وقافيته كثيرًا من الوظائف الشعريّة واللغويّة والتراكيب والمفردات. إنّ النّظر في كُتُب الخطبة المنبرية -قديمًا وحديثًا- يثري البحث الأدبيّ جدّةً وموضوعًا وفكرًا ووظائفًا؛ حيث إنّهُ يكشف مصدرًا منسيًا للشعر في وسطٍ مُقدّس، وأجواء روحانيّة خاشعة، لا يجوز أن يُنطقَ فيها أقل كلمة: (صه).

وقد وَقَعَ اختياري على مجموعة (منبريات) للمؤلف أحمد السديس بوصفها مجالًا للبحث والدراسة؛ لاشتمالها على شواهد شعريّة كثيفة في كمّها، متنوعة في موضوعها، مختلفة في عصرها، وحتى في وزنها وحدثتها، علاوةً على أن هذه الخطب قد أُلقيت في فترةٍ زمنيّةٍ طويلة^(٣)، فضلًا عن تنوّع موضوعاتها الذي علّله المؤلّف بقوله في المقدمة: "حتى يستفيد منها أكبر جمع ممكن، ويكون الخطيبُ بها بعيدًا عن الإملال والإسأم.." ^(٤).

(١) البيت مطلع قصيدة للشاعر الأندلسي أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٤/٤٨٧.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم وتعليق عبدأ علي مهنا، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٦٣.

(٣) انظر: منبريات، مجموعة خطب متنوعات، المجموعة الأولى، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مدار الوطن، الرياض، ٥-٤/١.

(٤) السابق، ٥-٤/١.

تمهيد:**أ- تعريف خطبة الجمعة وأهميتها وحكمها:**

خطبة الجمعة؛ تركيبٌ لفظيٌّ يُوَدِّي مفهومه التَّقريبِيَّ إلى ما يُلقَى من الكلام المتوالي الواعظ باللغة العربيَّة، قبيل صلاة الجمعة، بعد دخول وقتها؛ بنيةً؛ قيامًا مع القدرة؛ على عدد يتحقَّق بهم المقصود^(١).

وهذا التعريف الاصطلاحيُّ يبيِّن لنا محلَّ البحث والنَّظر والتَّفصيل هنا، وذلك بتجلية خطبة الجمعة عن سائر الخطبة وأنواعها المتعدِّدة^(٢). وهي خطبة أسبوعيَّة درويَّة تتَّخذ موضوعاتٍ شتَّى؛ تتجدَّد وتتنوَّع حسب الأحوال والحاجات والظروف والإنسان والزمن. منها ما هو تقليديٌّ مُكرَّر^(٣)، ومنها ما هو مُتجدِّد حديث^(٤).

وتكمن أهميَّتها في أنَّ الإنصات لها واجب، ويحرمُ الكلام أثناءها؛ لقوله ﷺ: "إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب أنصت فقد لغوت"^(٥).

لأنَّ خطبة الجمعة شُرعت لمصلحة الحاضرين وإفادتهم وتذكيرهم، ولا يحصل ذلك إلا بالاستماع للخطيب والإصغاء له، وعلى هذا فلا يليق بأحدٍ أن يتكلم أو يتشاغل بشيءٍ في أثناء خطبة الجمعة، بل عليه أن يُنصت ويحضر قلبه للاستفادة^(٦).

ب- التعريف بالكتاب والمؤلف

الكتاب المعني بالدراسة هو كتاب منبريات، ويتكون من مجموعتين: الأولى، والثانية، نشرتهما مدار الوطن، الرياض، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، وضمت خمسين خطبة، في ستمائة وأربع وستين صفحة، قال المؤلف في مقدِّمتها: "وبين يدي القارئ الكريم مجموعة متنوعة من الخطب، التي يسرُّ الله لي بفضلِهِ ومَنِّهِ إلقاءها في مناسبات عديدة، خلال فترة طويلة... يجد قارئها خطبًا في العقيدة، والقرآن، والسيرة، والتاريخ، والتراجم، والأحكام، والآداب، والوعظ، والقضايا الاجتماعية، وقضايا الواقع ومستجداته، والمناسبات المتجدِّدة وغيرها"^(٧).

وجاءت إجمالاً في أربعة وخمسين شاهداً شعرياً، تضمَّنتها خمسون خطبة، هي عدد خطب مجموعة منبريات؛ الأولى والثانية، وكانت نسبة الشواهد إلى عدد الخطب هي ١٠٨٪.

ومؤلفها الأستاذ الدكتور أحمد بن صالح بن عبد الله السديس، ولد في مدينة البكيرية بالقصيم في ١٣٨٩/٧/٢٧هـ، درس المراحل العلمية جميعها في مدينة الرياض، وتخرج عام ١٤٠٦هـ، ثم التحق بجامعة الملك سعود في كلية الصيدلة، وبعد ثلاثة أعوام أثر تغيير تخصصه إلى اللغة العربية، فدرسها في كلية التربية وتخرج فيها في عام ١٤١٣هـ، ونال درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة الإمام في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، عمل في كلية المعلمين بالرياض، وفي المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، ثم استقرَّ به مقام العمل في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام، وصل إلى رتبة أستاذ في عام ١٤٣٧هـ.

(١) انظر: خطبة الجمعة وأحكامها الفقهيَّة؛ عبد العزيز بن محمد الحجيلان، ط١، دار ابن الجوزي، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ١٧.

(٢) كالخطب النيابيَّة، والانتخابيَّة، والثقافيَّة، والعسكريَّة، والقضائيَّة... إلخ.

(٣) كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك من موضوعات أصول الدين وعقيدته.

(٤) كخطب الإصلاح والتوجيه والإرشاد في معالجة القضايا المستجدة في حياة الناس.

(٥) أخرجه البخاري (٩٣٤)، ومسلم (٨٥١)، من حديث أبي هريرة.

(٦) منحة العلام في شرح بلوغ المرام، عبد الله بن صالح الفوزان، ط٤، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٣٣هـ،

ص ٤٠، ج ٤، وانظر: عمدة الأحكام من كلام خير الأنام ﷺ، الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي، ط٢، ١٤١٨هـ -

١٩٩٨م، دار ابن خزيمة، الرياض، ص ١٣٣.

(٧) السابق، ٥-٤/١.

زاوَل الخطابة في جوامع مختلفة؛ داخل المملكة وخارجها على مدى أكثر من ثلاثة عقود، بدأها في وقت مبكر من عمره، له نشاطٌ علمي ومؤلفات ومشاركات عديدة، كان له شرف تقديم أول دروس البلاغة في المسجد الحرام عام ١٤٣٩هـ، أشرف على عدد من الرسائل العلمية العليا ومناقشتها، وهو شاعر وأديب له قصائد ومقالات منشورة.

المبحث الأول: قضايا الشواهد الشعرية

يتضح في هذه القضايا السياقات التي استدعى فيها الخطيب الشواهد الشعرية لتكون شاهداً عليها، وانعكاساً لها في نماذج وشواهد، وقد طرقت هذه السياقات قضايا عدّة، وقفت عند بعضها، ومرت على أخريات مروراً عابراً وسريعاً.

والمبحث هنا يستكشف هذه القضايا، ويعرضها كما جاءت في السياق الذي تضمّنته خطبة الجمعة المعاصرة، في المملكة العربية السعودية، وتتمثل في الآتي:

أ- القضايا الإسلامية:

وهي المقصد الأساس والمرتكز الأول في خطبة الجمعة منذ تشريعها إلى قيام الساعة، وبواسطتها تكون الدعوة إلى الأركان والمهامّ الجسام في الإسلام؛ ولذلك قال بعض العلماء في علّة تسميتها بـ(خطبة الجمعة): لِمَا جُمِعَ فيها من الخير^(١).

فكانت قضايا الشواهد الشعرية وسياقاتها في نصرة قضايا المسلمين المعاصرة، ودعوة الأمة إلى الجهاد، وفي هذا الموضوع جاءت رسالة الإمام عبد الله بن المبارك^(٢) إلى الفضيل بن عياض^(٣)، وكان ابن المبارك في أحد الثغور مجاهداً بطرسوس، والفضيل في المسجد الحرام معلماً ومفتياً، فأرسل إليه قائلاً:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنّك بالعبادة تلعب
من كان يخضبُ جِدّه بدموعه	فحورُننا بدمائنا تتخضّب
أو كان يتعبُ خيلَهُ في باطلٍ	فخيولُننا يومَ الكريهة تتعب
ربح العبير لكم، ونحن عبيرُننا	وهج السّنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذب
لا يستوي وغبارُ خيلِ الله في	أنفِ امرئٍ ودخان نارِ تلهب
هذا كتابُ الله ينطقُ بيننا	"ليس الشهيْدُ بميتٍ" لا يكذب ^(٤)

وربّما اختار الخطيب هذا النموذج والشاهد الشعريّ دون غيره ممّا هو أفصح منه وأبلغ؛ لأنّ فيه دعوة صريحة لما يريد إبلاغه في خطبة الجمعة، بأسلوب سهل ومعنى واضح؛ حيث إن فهم المعاني أساس في الإقناع والاستمالة^(٥).

كما أنّه في المعاني المكوّنة والمؤكّدة للقصد المراد، يحشد الحقائق الصحيحة الواردة في النصوص الثابتة في القرآن والسنة، كاستدعائه قول ابن المبارك:

هذا كتابُ الله ينطقُ بيننا "ليس الشهيْدُ بميتٍ" لا يكذب

(١) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٣٥٣/٢؛ الشوكاني، نيل الأوطار، ٢٢٢/٣ - ٢٢٣؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩٧/١٨.

(٢) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، عالم وإمام مجاهد، ولد ١١٨هـ بمرو، وتوفي عام ١٨١ في العراق.

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي الخراساني.

(٤) السديس، منبريات، ٦٢/٢. والأبيات لعبدالله بن المبارك في: الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٤٠/١٢.

(٥) انظر: فن الخطابة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، ديت، ص ١٦٨.



فهو معنى مأخوذ من قوله تعالى: **رَوَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرزقونَ** (آل عمران: ٦٩).

ومثل هذه الإحالة قوله:

ولقد أتانا من مقال نبينا
لا يستوي وغبار خيل الله في
قول صحيح صادق لا يكذب
أنف امرئ ودخان نار تلهب

إذ يحيل البيتان إلى قول النبي ﷺ في الحديث: "لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً..."^(١).

إلا أن السياق المتضمن لهذا الشاهد الشعري يختلَف موضوعه الرئيس عن الجهاد والدعوة إليه إجمالاً، فقد جاء ضمن خطبة بعنوان (ورثة الأنبياء) بين فيها الخطيب مكانة العلم الشرعي والعلماء الربانيين الهداة، وفي سياق الموضوع قال عنهم:

"وأما الشدائد والزلازل والملّمات فإن العلماء في الأرض أطنابٌ قويّة، وأوتادٌ متينة. فحين تحيط بالأمّة المحن والخطوب؛ يلتفت الناس حول علمائهم، ليردّوا كيد أعدائهم.

يصمدون في أوائل الصُفوف، ويتعرّضون لأنواع الأذى والحتوف. قد وهبوا أجسادهم لهذا الدين دروعاً، وجماعهم سلالِم.

حين اجتاحت التتار العالم الإسلامي، قيّض الله لهم عالماً ربانياً، هو شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- الذي دعا الأمّة إلى الجهاد، وتقدّمها إلى ساحة الوغى والقتال؛ حتى ردّ كيد الغزاة.

ومن أرض إحدى المدارك أرسل عبد الله بن المبارك -أمير المؤمنين في الحديث- رسالةً إلى الفضيل بن عياض، قال فيها:..^(٢).

وقد يُقال باعتساف الخطيب لهذا الشاهد الشعري في الخطبة، واختلال وحدتها الموضوعية، وله ما يقويه، والأقوى منه الحاجة إلى التنوّع في مصادر خطبة الجمعة، وجمع عناصرها من المراجع الإسلامية والتاريخية والاجتماعية والأدبية^(٣)؛ ممّا يوقظ للحواس ويطرد السأم، ويساعد في نقل الذهن نقلاتٍ مفاجئة منشطة، تبدو تلقائية غير متكفّفة، وتُقدّم في الخطبة بإطارٍ مُشوِّقٍ محبّب^(٤)، وما الشعر إلا من الوسائل التي تستعمل في ذلك^(٥).

وجاءت عداوة اليهود للمسلمين -قديمًا وحديثًا- ميدانًا رحبًا لدعوة الأمّة إلى الجهاد؛ نصرّةً للحق، وقهرًا وإزهاقًا للباطل، وأنه ليس لقضيتنا مع اليهود حلّ إلا بالجهاد، الذي يرفع الله به الذلّ، ويملا النفوس بالعزّ، ويطرد به العجز والكسل، وهو الطريق الأوحّد للتصرّ والظفر^(٦).

ولذلك كان المطلع الشعري في هذا السياق مزدهمًا بالفعل المباشر الذي يقتضي المعالجة والمباغنة والقوّة -فعل الأمر-: أحيلوا، شدّوا، أبيدوا - كلها في المطلع، فيقول من شعره:

أحيلوا صبحهم ليلاً وشدّوا
أبيدوهم ولا تخشوا جنّاحاً
ولا يُرهبكم الأعداء يوماً
وإن ضاموا عتاداً أو بطاحاً^(١)

(١) الألباني، صحيح الجامع (٧٦١٦)، رواه أبو هريرة.

(٢) منبريات، ٦١/٢.

(٣) انظر: مقدمة توجيهات وذكرى، صالح بن حميد، ٣٣/١.

(٤) انظر: مقدمة الخطابة، فن التحرير العربي، محمد الشنطي، ط٨، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، دار الأندلس، حائل، ص٢٢٧.

(٥) انظر: باب (السجع والشعر في الخطابة) في كتاب: الخطابة وإعداد الخطيب، توفيق الواعي، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، مكتبة الفلاح، الكويت، ص٢١٨ - ٢٢٤.

(٦) منبريات ٢٥٤/١ - ٢٥٥.



ثم يستحضر وعد الله -والله لا يخلف الميعاد- بنصر المؤمنين، وتأبيده لهم بجنوده الخفية والظاهرة، في إلماحة موجزة بكلمتي: أبابيل، وسجيل.

وفيها كناية عن قصة أصحاب الفيل، التي روتها كتب السير والتاريخ، والتفسير، بالتفصيل وجاءت مرّة واحدة في سورة الفيل، وهي رمز عميق الدلالة في تأكيد النصر بجنود غير خاضعة لمقاييس العقل البشري، ولا حتى في خيالاته واستشرافاته، يقول:

أبَابِيلٌ وَسَجِيلٌ تُدَوِّيْ بِهِمْ قَدْ أَخَذْتِ فِيهِمْ جِرَاحًا (٢)

ويعود إلى ما تضمّنه مطلع الشاهد قوّة وصرامة؛ قائلاً:

فَرَوُوا الْأَرْضَ مِنْ دَمِهِمْ وَهَبُّوا
وَمَنْ يَقْطَعُ فِيْهَا فَيُفَارًا
فَكَمْ شَرِبُوا عَلَى دَمِنَا الْقِدَاخَا
وَيَضُمُّ يَشْرَبُ الْمَاءَ الْقِرَاخَا
إِذَا الْأَسْيَافُ لَمْ تَرْجِعْ دِيَارًا
فَلَا عَادَتْ وَلَا تُقْنَا فَلَاحَا (٣)

كما حضرت الشواهد الشعرية في قضية الصومال^(٤)، وقضية أرض البلقان^(٥)، وهما من القضايا الوقتية العابرة التي مرّت على الأمة في هذا العصر، وأخذت حيزًا واسعًا في اهتماماتها ومواقفها وإعلامها، وتألّمت لأجلها، وأعانت -جاهدة- على دفعها وتخفيفها، وسعت لمواساتها وإشهارها، والدعاء بالنصر والتمكين لها، والمناداة لنجدها عبر وسائل وقنوات ومنابر؛ من أهمها خطبة الجمعة، ثم اضمحلت حتى نسيت وطويت صفحاتها.

لقد كتّفت الشاهدان اللذان جاءا في سياق الإشارة إلى قضية البوسنة والهرسك -أرض البلقان- المأساة الدامية في هذه الأرض، ووصفًا الواقع المبكي للشعب، وهول الفاجعة، فيقول في الأول:

فَأَهْ كَمْ أَبِ أَمْسَى شَرِيْدًا
وَكَمْ أَخْتٍ مِنْ الْأَغْلَالِ نَاءَتْ
وَمَنْ يَقْوَى عَلَى عَيْشِ الشَّرِيْدِ؟
وَكَمْ أُمَّ تَسْرِبُلُ بِالْحَدِيْدِ!!
يَنْوَأُ الْقَلْبُ مِنْ نَوْحِ التَّكَالِي
وَمِنْ عَبْرَاتِ أَحْزَانِ الْوَلِيْدِ!! (٦)

ويأتي الشاهد الثاني مستقصيًا الصورة التي عليها حال المسلمين: من الصمت والخذلان، والعجز، والتقاطع... فيقول:

كَمْ يَسْتَعِيْثُ بِنَا الْمُسْتَضْعَفُوْنَ وَهَمْ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ
قَتَلَى وَأَسْرَى، فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَانٌ؟
وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ
أَلَا نَفْسٌ أَيْبَاتٌ لَهَا هَمٌّ
أَمَّا عَلَى الْخَيْرِ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانٌ؟! (٧)

(١) المصدر السابق، ٢٥٥/١، عنوان الخطبة: (صفحات مطوية من تاريخ اليهود).

(٢) المصدر السابق، ٢٥٥/١.

(٣) المصدر السابق، ٢٥٥.

(٤) كانت مجاعة موجهة؛ اجتاحت الصومال، وظهرت بعض صورها ومشاهدها في وسائل الإعلام العالمية والإقليمية عام ٢٠١١م.

(٥) قضية أرض البلقان: هي جمهورية البوسنة والهرسك التي اجتاحتها الصرب والكروات، وتحالفوا على القتل والتشريد والفساد فيها، عام ١٩٩١م.

(٦) منبريات ٢/٢٩٤. الأبيات للشاعر يحيى بشير حاج يحيى، منتديات الجلفة، الموقع الإلكتروني: <https://www.djelfa.info/vb/archive/index.php/t-٦٦٦٤٣.html>

(٧) منبريات ٢/٢٥٧. الأبيات لأبي البقاء الرندي، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٤٨٧/٤.

وهي أبياتٌ تجمعُ بين العاطفة المكلومة والسهولة المتناهية، وفيها يستنصرُ الشاعرُ ذوي النفوس الأبيّة، والهَمَّ العزيرة من المسلمين لنجدة إخوانهم الذين أصبحوا قتلى وأسرى للعدو. ونجد أنّ الخطيب -هنا- يقف موقف الشاعر من المأساة الأولى -الأندلس- ويُعبّرُ تعبيره، وكأنّها ردة فعلٍ لعاطفة الشاعر السابقة، أو انعكاسٍ جديدٍ للأثر النفسي والتعبيري الذي كان قديماً، ثم تجدد في أرض البلقان.

وهنا يبرز تساؤل!

هل ناسب الشاهد الشعريُّ هذا؛ موضوع الخطبة وعاطفتها؟ لقد كان الشاهد مُهَيَّجاً لذكرى الألم والحزن السالف للأمة الإسلامية، ومُجَدِّداً لأوجاعها القديمة، أمّا العاطفة فإنّها مسابرة للموضوع والقضية، فهي حزينة مؤلمة تكشف عنها الأبيات بوضوح، لاسيما مطالعها المتشابهة في تعبيرها؛ المشحون بالسؤال الاستفهامي القوي؛ ممّا يُحتمّ جواباً سريعاً ومقنعاً، واستجابةً عاجلة تُبرئ الجرح النَّازف...

(كم، فَمَا، ماذا، أَلَا، أَمَا) وهذا الأسلوب الاستفهامي الاستنهاضي من الأساليب التي يستثيرُ به الخطيبُ المشاعر؛ "لأنّ الخطيب المنفعل، الصادق العاطفة، الحارّ الشعور، تلتهبُ كلماته، وتصل إلى القلوب عباراته"^(١) "على أن يتخيّر الأسلوب واللفظ الملائم للمعنى؛ من خبر وأمر ونهي واستفهام وتعجب ورجاء ودعاء إلخ"^(٢).

وهذا الأسلوب له قدرته على التأثير في النفس؛ لأنّ المعنى يسري فيها، ويعيد إليها المناظر الماضية، والذكريات السالفة وكأنّها بين يديه رأي العين.

أمّا قضية الصّومال المسلمة فكانت حاضرةً كمأساة إنسانية قبل أن تكون إسلامية، فهناك الجوع والفقر والمرض والخوف... مع حملات التنصير وتحركات مبشريه؛ ممّا يُحتمّ اليقظة وينادي بها قائلاً:

يا مسلمون، استيقظوا يا مسلمون لن تبلغوا شأواً وأنتم نائمون^(٣)

وهي يقظةٌ تستلزم العون العاجل، فهناك هياكل بشرية، وجمام متراكمة، وأنينٌ ووباءٌ وجفاف، يقابله غيابٌ عن المشاطرة في المواساة والبذل، فيسوق الشاهد الشعري قائلاً في سُخْطٍ وتوجّع:

فأيُّ سماءٍ نُظُلُّنا...

وأيُّ أرضٍ نُقَلُّنا...

وكلُّنا خلف الأنا...

وأختنا وسط العنا...

من روحها سلبوا الهنا...

من قلبها سرَقوا السنا...

يا أختنا لمن الصياحُ؟ لمن البكا؟!^(٤)

والمتمأل في هذا الشاهد يلمحُ تصويراً دقيقاً في سيطرة (الأنا) على الذات التي تعيش لنفسها، ولا تلتفت إلى غيرها، ولو كان يستغيثُ لطلب شربة ماء.

والمسلم لا يمكن أن يعيش لنفسه، بل إنَّ مجرد عبور مثل هذا الفكر أو الخلق النشاز يجعل إنكاره يأتي بداية عبوره باستفهام مُتكرّر، يُوحى بعظيم شناعته، وكبير إنكاره قبل أوّانه:

(١) فنّ الخطاب، أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة، دبت، ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٣) منبريات، ٢٣٥/١.

(٤) منبريات، ٢٤١/١.

فأيُّ سماءٍ تُظِلُّنا...
وأَيُّ أرضٍ تُقِلُّنا...
وَكُلُّنا خلف الأنا^(١)...

و(الأنا) تعني غياب الضمير، وتضخم الذات، ولا شك أنّ الغلو في وصف (الأنا) يقصر دون مدلولها الواسع في الدّمّ والسوء، لا سيّما وقد جاءت في وسط (العنا) و(أختنا) و(سلبوا) و(سرقوا) و(الصّياح) و(البكا)، وهي كلمات تُفصّل وتُكرّر الاستغاثة والنخوة؛ لذلك صدّرها بحديث المصطفى ﷺ: "مَنْ نَفَسَ عَنْ مَوْمِنٍ كَرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا؛ نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كَرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"^(٢).

وَعَلَّقَ عَلَى الشَّاهِدِ قَائِلًا: "فِيَا مَنْ يَرْجُونَ عَوْنَ اللَّهِ؛ هَا هِيَ الْفُرْصَةُ أَمَامَكُمْ فَأَعِينُوا إِخْوَانَكُمْ!!"^(٣).

والملاحظ أنّ الشواهد الشعرية وقفت كثيرًا، وأظنبت في سياقاتها على الواقع الإسلامي المؤلم في تصدّعه وتخاذله... والبكاء على حاله، والنداء والاستغاثة لنجدته، ولم تسهب شواهدا المتفائلة، واكتفت في هذا الباب بهذا البيت فقط:

ضاقّت فلمّا استحكمت حلقاتُها فُرَجَتْ، وكنت أظنّها لا تُفَرِّجُ^(٤)

وجاء العوض عن الشاهد الشعري -في هذا الباب- بتكثيف الآيات والأحاديث التي تعكس التفاؤل المرتقب للخير والنصر والفلاح، فالمسلم واثق بنصر الله، وغلبة جنده، وإعلاء كلمته، بمثل قول الله تعالى: **ثُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** (سورة البقرة، الآية: ٢١٤)، **ثُمَّ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** (سورة غافر، الآية: ٥١)، **ثَوَّكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (سورة الروم، الآية: ٤٧)، **ثَوَّلَيْنَصْرَ اللَّهِ مَنْ يَنْصُرُهُ^٥ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** (سورة الحج، الآية: ٤٠). وهذه النظرة المتفائلة جاءت سائدة بشكل كثيف في سياقات الخطبة^(٥)؛ تجسيدًا للموعود الإلهي الذي لا يخلف أبدًا، ويبرز من خلال الآيات المختارة المتضمنة كلمة (النصر) بجميع صيغها الزمنية واللغوية، عمدًا وليس صدفة، لتعوض النقص البين في الشاهد الشعري المُساق في هذا الباب، مقابل الكثافة في الشاهد الواقع زمنيًا، المؤلم نفسيًا.

ويستمر الشاهد الشعري في الحضور الكثيف والمتنوع في القضايا الإسلامية، فيبين سبيل النصر؛ مرةً بإيجاز، وأخرى بتفصيل، أمّا الموجز فيكشف عنه هذا البيت الذي تضمّن طرّفًا عدّة: **تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْأَلْهَا مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَمْشِي عَلَى الْيَبْسِ^(٦)**

فكلمة (مسالك) حوت كلّ ما أشار إليه الخطيب من أسباب النصر وتحقيق الغاية المنشودة، فهي تجمع المعاني المؤدّية إلى: البذل، والتعب، والهمة، والجِدّ، والقوة، والاجتماع... إلخ^(*).

(١) المصدر السابق، ٢٤١/١.

(٢) صحيح مسلم، (٢٦٩٩).

(٣) منبريات، ٢٤١/١.

(٤) منبريات، ٢٩٠/٢. والبيت للشافعي، ديوان الشافعي، اعنتى به عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٣٩.

(٥) منبريات، بشائر النصر، ٢٧٩/٢ - ٢٩٢.

(٦) منبريات، ج٢/٢٩٥. والبيت الشعري لأبي العنّاهية، ديوانه، دار بيروت، للطباعة والنشر، ١٩٨٦م، ص٢٣٠.

(*) ولذلك نجد تكرار هذا الشاهد في أكثر من موضوع؛ انظر: منبريات، اللحظات الحاسمة، ١١١/١.

لكِنَّه فَصَلَّ وَكَنَّفَ فِي مَسَلِكٍ وَاحِدٍ -رَبِّمَا لِأَتَّهَمِ الْأُولَى- وهو الاجتماع، فقال: (١) "عليها -الأمّة- أن تعي أن الاجتماع أقوى أشكال الدفاع، وأنّ العدو تنقطع منه في المجتمعين الأطماع، وأنّ خمسة متجمعين أقوى من عشرة متفرقين، وأنّ القوم لن يعجزوا إذا تعاونوا، وأنّ يد الله مع الجماعة، وإنّ الله يُجِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ (سورة الصف، الآية: ٤) مستدعيًا قول الشاعر ناهض الكلابي:

أَمْ تَرَى أَنْ جَمَعَ الْقَوْمَ يَخْشَى وَأَنْ حَرِيمَ وَاحِدِهِمْ مُبَاخٌ
وَأَنَّ الْقِدْحَ حِينَ يَكُونُ فَرْدًا فَيُصْهِرُ لَا يَكُونُ لَهُ اقْتِدَاخٌ
وَأَنَّكَ إِنْ قَبِضْتَ بِهَا جَمِيعًا أَبْتَ مَا سُمْتَ وَاجِدَهَا الْقِدَاخُ (٢)

ولا شك أن أهمية الاجتماع وصدارته لأسباب النصر جعلته محلّ حسدٍ وتكثيف في الشاهد الشعري المساق في الخطبة؛ ولذلك أكثر الحديث النثري في هذا الباب تحديدًا، حتى تجاوز ثلاث صفحات، وجاء فيها بشاهد من التاريخ قائلًا: "وقد عرف التاريخ دولةً إسلامية قويّة في الأندلس، واجهت خلال عقود طويلة الصليبيين، وكانت المنتصرة عليهم في جُلِّ هذه المواضع. ولكنّها حين دَبَّ فيها الخلاف، وانقسمت إلى طوائف ودويلات؛ هان على العدو أمرها، فتمكن منها، ومَرَّقَ كيانها، فصارت أثرًا بعد عين" (٣).

كما أن قضيتي العراق وأفغانستان جاءتا ضمن القضايا الإسلامية في خطبة الجمعة؛ إلا أن حضورهما ضمن الشواهد الشعرية المساقاة والمتداولة في الخطبة كان عابراً وبسيطاً، ولا يوازي قوة وحضور وأهمية هاتين القضيتين لا أثرًا ولا خبرًا.

نجد أنه اكتفى بشرط بيت واحد في قضية العراق (التتار الجدد) (٤)، فبعد أن أطال الحديث في العدوان على العراق، وما يعانیه أهلها من قتل ودمار وتشريدٍ وظلم... قال: "خلال ذلك يزعمون حرصهم على توزيع المساعدات الإنسانية على شعب العراق، وحقّ لنا مع هذه الوقاحة أن نقول لهم ما قال الأول:

لِكِ الْوَيْلِ، لَا تَزْنِي وَلَا تَتَّصِدُقِي (٥)

أمّا في قضية أفغانستان فقد جاء الشاهد الشعري بيّنًا واحدًا، في سياق التعجّب، من التناقض في التعاطي مع القضايا الإسلامية، والكيل بمكيالين، كلُّ واحدٍ منها على النقيض من الآخر. فحينما هُدمَ مسجد البابري في الهند، وكذلك في البوسنة، وقبلها حفر اليهود تحت الأقصى لم تتحرك القوى التي تدعي إنسانيتها عالميًا، ولما هُدمَ تمثال (صنم) هُبوا جميعًا لنصرته. ثم يتساءل: ما بأل القوم ينظرون إلى التمثال وينسون الإنسان!؟

ويأتي بقصة صنم عمرو بن الجموح... الذي وجده مرميًا في حفرةٍ مع كلب ميت وسيفه المعلق... فنظر إليه وقد عاد عليه رشده، فقال:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا لَمْ تَكُن أَنْتِ وَكَلْبٌ وَسَطٌ بِئْرٍ فِي قَرْنٍ (١)

(١) منبريات، ٢٩٥/٢.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ٣٣٣/١.

(٣) منبريات، ٢٩٩/٢.

(٤) منبريات، ج ١، ٢٨١.

(٥) منبريات، ج ١/٢٩١. وينسب البيت الشعري للسيد الحميري، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، أحمد قبش بن محمد نجيب، دبت، ٤٠٤/٤.

وفي سياق آخر يجمل المخرج من الأزمات التي تعيشها الأمة من خلال هذين الشاهدين، يقول الأول:

تعدُّ الذنابُ على مَنْ لا كِلابَ له وتتَّقِي صَوْلَةَ المسْتَأْسِدِ الضَّارِي^(٢)

ممهِّدًا له بقوله: "الأمم الضعيفة لا يُؤبَهُ بها، وأنَّ الأمم الحيَّة القوية تُسَمَعُ كلمَتُها، ويُحسَبُ لها حسابُها، وأنَّ العالمَ اليوم تحكمه شريعةُ الغاب، ولا مكانَ فيه للضعفاء، وبينما يقومُ القويُّ بالعملِ يكتفي الضعيفُ بالأمانِ والأمل"^(٣).

أمَّا الشاهدُ الثاني ففيه ثناءٌ صريحٌ ودعاءٌ للشدائد والأزمات التي كانت فرقانًا بينت العدوَّ من الصديق، وأزالت الغشاوة عن البصائر والأبصار، فكان هذا البيت:

جزى الله الشدائدَ كُلَّ خيرٍ عرفتُ بها صديقي من عدوي^(٤)

لأنَّ الشدَّةَ تجعل الأمرَ واضحًا لا لبسَ فيه، وتكشفُ أخاك من عدوك.

المبحث الثاني: القضايا الفكرية

وهنا نستكشف ما تناولته الشواهدُ من موضوعات عدَّة؛ جاء في مُقدِّمتها الإنسان القدوة، في دعوتها، وأخلاقه، ورسالته، وطبيعته، وجاء هذا الإنسانُ على مثالين: الأول؛ فُدوةٌ معصومٌ مرسل، وهو "قائدنا وحبيبنا وقدوتنا نبينا محمد عليه أزكى الصلاة والسلام، الهادي البشير، والسراج المنير، الحريص علينا، الرؤوف الرحيم..."^(٥).

والثاني، مُتَّبِعٌ للأولٍ مقتدٍ به، سائرٌ على نهجه، سالك طريقه، داعٍ إليه، وهو "الفاروق عمرُ بن الخطاب" ... جمع الكثير من صفات الكمال، وعلامات التمام...^(٦) وعمرُ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأمويِّ القرشي، "مُجَدِّدُ القرنِ الأوَّل، الذي قال فيه أبو جعفر الباقر: لكلِّ قومٍ نجيبٌ، وإنَّ نجيبَ بني أمية عمر بن عبد العزيز"^(٧) وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، "شيخ الإسلام في عصره..، وعلامة عصره، ومزيد زمنه، صاحبُ السِّبْقِ والمعالي، وإمامُ الخير والأعالي..."^(٨).

أمَّا الأول والقدوة ﷺ فكانت الشواهد فيه على سياقين متناقضين: أحدهما فخر، واعتزاز وبه نعمة الدارين، وسعادة الحياتين، ولا يتحقق إلا بأمرين لا ثالث لهما: العبودية الخالصة لله، واتباع النبي الخاتم ﷺ، فيقول:

وممَّا زادني شرفًا وتيَّها وكددتُ بأخصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك "يا عبادي" وأن صيرت أحمدَ لي نبيًّا^(٩)

(١) منبريات، ٢٦٣/١. والأبيات وقصتها في: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: حسين أسد، إشراف: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥-١٩٨٥م، ٢٥٤/١.

(٢) منبريات، ج ٣١٦/٢. البيت للناطقة الذبياني: التمثيل والمحاضرة، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلوة، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٤٠١-١٩٨١م، ص ٣٥٢.

(٣) منبريات، ج ٣١٦/٢.

(٤) منبريات، ج ٣١٨/٢. ولم أجد للبيت الشعري قائلًا من مصدر موثوق.

(٥) منبريات، ٤٢/١.

(٦) منبريات، ٤٠/٢-٤١.

(٧) منبريات، ١٦٠/٢.

(٨) منبريات، ١٦٨١/١.

(٩) منبريات، ١٨٠/١. والبيتان للقاضي عياض، تحفة الحبيب على شرح الخطيب = حاشية البجيرمي على الخطيب، سليمان بن محمد بن عمر البُجَيْرِمِي المصري الشافعي، دار الفكر، ١٤١٥-١٩٩٥م، ١١/١.

والأخر مؤلم يهيج الدموع، "إنه الحديث عن قاصمة الظهر ومصيبة العمر... ذلكم هو وفاة قائدنا وحبينا نبينا ﷺ..."^(١).

وكان أول شاهد في هذا السياق قول الشاعر أبي البقاء الرندي:

دهى الجزيرة أمرٌ لا مردَّ له هوى له أحدٌ، وانهدَّ ثهلانُ^(٢)

واختيار الخطيب لهذا الشاهد -من بين القصائد الطوال في رسول الله ﷺ- لا لأنه الأجود، وإنما هي رسالة الخطيب التي تقتضي تغذية الشعور، وإثارة الحماس^(٣). وهذه من أهم العناصر التي تصوّر الفكر والوسائل المؤثرة في السامع وجذبه إلى ما يريد الخطيب... ثم يأتي بعد ذلك الترتيب؛ بحيث تتسلسل العناصر بعضها إلى بعض، حتى ينتهي من الفكرة ويصل المقصود إلى عقل السامع وفكره^(٤). وهو ما جاء منتظماً في السياق النصي والشعري هنا. فقد كان الفداء والحب في حياته، وهو ما عبّر به الخطيب بعد الشاهد الأول، قائلاً:

فَدَيْ لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَ إِذَا اشْتَبَهَتْ دَمَوْعٌ فِي خُدُودِ
فَمَّا شَهِمُوا إِذَا إِلَّا فِدَاكَ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَأ مَمَّنْ تَبَاكَى^(٥)

والبيت الأول فيه صدق التجربة الشعرية التي سبق إليها الصديق أبو بكر ﷺ بقوله: "فديناك بأبائنا وأمهاتنا"^(٦)، وهذه المشاعر الصادقة -وإن كانت لدى المسلمين جميعاً- فإن الشعر هو الذي يستطيع أن يجمعها في صورة واحدة مفصلة تتغلغل في النفس، وتخرج مكنوناتها؛ إذ إن حبة من مقتضيات الإيمان الصادق، وهي مشاعر تظهر علناً أماراتها:

إِذَا اشْتَبَهَتْ دَمَوْعٌ فِي خُدُودِ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَأ مَمَّنْ تَبَاكَى^(٧)

ولكلمة (اشتبهت) دلالات صوتية حسية، ومعنوية خفية. كُأها من الأمارات العاطفية الحقيقية. وبعد الفداء والحب في الحياة يكون البكاء والحزن عند فقده وفراقه، كما في الشاهد الذي ساقه الخطيب في قوله:

كَذَا فليجَلَّ الخطبُ وليفدَحَ الأمرُ
فليس لعينٍ لم يفِضْ ماؤها عذراً
ثوى طاهرُ الأردن، لم تبق بُقعةٌ
غداة ثوى إلا اشتبهت أنها قبرُ^(٨)

ثم يأتي العزاء في هذا الشاهد:

كفأك عن كلِّ قصرٍ شاهقٍ عمدٍ
بيتٌ من الطين، أو كهفٌ من العَلَمِ
تبنّي الفضائلُ أبراجاً مشيِّدةً
نُصِبَ الخيام التي من أروع الخيمِ
إذا ملوكُ الورى صَفَوْا موائدهم
على شهيٍّ من الأكلات والأدم

(١) منبريات، ٤٢١/١.

(٢) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، ٤٨٧/٤.

(٣) الخطابة وإعداد الخطيب، توفيق الواعي، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، مكتبة الفلاح، الكويت، ص٤٣.

(٤) انظر المصدر السابق، ص٨٨.

(٥) منبريات، ٤٦/١. والبيت لأبي الطيب المتنبي: ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ٣٨٥/٢، ٣٩٤.

(٦) صحيح البخاري: كتاب المناقب.

(٧) منبريات، ٤٦/١.

(٨) منبريات ٥١/ج١. والبيتان لأبي تمام، ديوان أبي تمام، شرح الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد عبده عزام، ج٢، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١١٩، ص٧٩.



صَفَقَتْ مَائِدَةً لِلرَّوْحِ مَطْعُمَهَا عَذَبٌ مِنَ الْوَحْيِ أَوْ عَذَبٌ مِنَ الْكَلِمِ (١)

جاء العزاء هنا في منزلة تأمل فكريّ إلى ما بعد الموت، هذا التأمل يجيب على سؤالات تواسي وتخفّف من أثر المصاب؛ منها: استدامة الأثر إلى نهاية الدنيا، وإذا دام الأثر بقي الذكر وهذا الأثر ليس قصرًا شاهقًا، ولا بيتًا، ولا كهفًا؛ إنّما هو فضائلٌ مشيدة، وموائدٌ عذبة المطعم... تغذي الرّوح، والعقل، والفكر... بالوحيين: القرآن والسنة: (عذبٌ من الوحي أو عذبٌ من الكلم). ولا شك أنّ التغذية الروحية أكبر وأهمّ من التغذية الجسدية، في توطيد القيم والأخلاق والسلام، والإنسان القدوة هو الأساس في هذا التوطيد، ولا أكمل من النبي القدرة محمد، فالفضائل التي جاء بها، والأخلاق التي تخلّق بها، والقيم التي تمثلها، والأمن والسلام الذي رسخهما في سيرته من المثل العليا والقضايا المثلى، التي يُعوّل عليها، وأنها مكرمةٌ من الله للنفس البشرية التي هي محور الوجود، وسببٌ للحياة السعيدة الكريمة، وطريقٌ للتعامل مع قضاياها الفكرية والعقدية والإنسانية. ولذلك جاء المثل الثاني، وهو المُتَّبِع للقدوة على أحسن سيرة، فكانت العمريّة الأولى، التاريخ الإنساني العظيم؛ الذي "يصنعه قادة فاتحون، وأبطالٌ خالدون، إنهم رجالٌ يصنعون التاريخ ولا يصنعهم... ولنا في هؤلاء أسوةٌ وقدوةٌ حسنة" (٢). وهذا ما جعل الخطيب يدعونا إلى قراءة التاريخ مستشهدًا بهذا البيت:

اقروا التاريخ إذ فيه العبرُ ضلّ قومٌ ليس يدرون الخبز (٣)

يُذَكِّر بقراءة التاريخ، وكأنّها رسالةٌ تقول: إنّ أكبر ما يعابُ علينا؛ أنّنا لا نقرأ التاريخ، ولا نرجعُ إليه لنتخذ منه الدروس والعبر؛ لأنّ فيه التجارب والسير، وبه نعرف الصواب فنأخذ به، والخطأ فنجتنبه، والقدوة فنسلك مسلكه، والقدرة المتبّع هو "الوزير الثاني للرسول ﷺ، والوزير الأول لأبي بكر ﷺ" (٤). عمر بن الخطاب العدوي القرشيّ ﷺ الذي "وقف الهرمزان -وهو أحد ملوك الفرس- وهو بأعظم خلة على عمر بن الخطاب، وهو نائم في المسجد على هيئة متواضعة، فلم يعرفه وسأل: أين عمر؟

فأشير إليه. فقال متعجبًا: وأين حرسه وجنوده؟

فنظر إليه بخشوع وقال: عدلت فأمنت فمنت" (٥). فكان من المناسب أن يأتي الخطيب بأبيات ترسم هذا المشهد المهيب، وليس أجمل من قول حافظ إبراهيم، من قصيدته العمريّة، وقد اختار منها قوله:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرًا	بين الرعيّة عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها	سورًا من الجند والأحراس يحميها
راه مُستغرّفًا في نومه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فهان في عينه ما كان يُكبّره	من الأكاسير والدنيا بأيديها

(١) منبريات، ٥٢/١. والأبيات للشيخ عائض القرني، دروس للشيخ عائض القرني، ص ٧٧٤٧ على الرابط:

https://books.islam-db.com/book/%D8%AF%D8%B1%D9%88%D8%B3_%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D8%AE_%D8%B9%D8%A7%D8%A6%D8%B6_%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%86%D9%8A/7747

(٢) منبريات، ١٤٠/٢.

(٣) منبريات، ١٤٠/٢. والبيت لأحمد شوقي، الشوقيات، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م، مج ٢، ٣٩/٤.

(٤) منبريات، ١٤٣/٢.

(٥) منبريات، ١٥٣/٢.



وقال قولاً حَقَّ أصبَحَتْ مَثَلًا
أمُنتَ لما أقمْتَ العَدْلَ بينهمُ
وأصبحَ الجَيلُ بَعْدَ الجَيلِ يرويهَا
فمَنتَ نَومَ قَريِرِ العَينِ هَانئَهَا^(١)

وانتقاء هذه الأبيات بين أحداثها الطويلة، ومواقفها العظيمة، وتصويرها على النهج الذي يدعونا إلى التأمل في هذه المعاني النبيلة، والسجايا الكريمة، والطباع السامية في هذا الإنسان، وكيف للأمة أن تجعله قدوة في العدل والزهد والتواضع، وتنقاد بحبله الإنساني العظيم إلى فكرٍ ينزغ بها إلى آمالٍ طال مدّجها وهي تنقب عنه كل سرى؛ لتنام أمنة قريرة العين هانئة العيش.

وتكثر لدى الخطيب الشواهد في هذا السياق، لكنها تتحد في أهدافها ومقاصدها كما نجد في (العمرية الثانية)^(٢)، والتي كان الحديث فيها عن "عمر بن عبد العزيز؛ مجيّد القرن الأول، الذي قال فيه أبو جعفر الباقر: لكل قوم نجيب؛ وإن نجيبه بني أمية عمر بن عبد العزيز". وكذلك في خطبته (حياة أوقفت لله)^(٣)، وقد صدّرها بمكانة أهل العلم، وانجفال الناس إليهم، وسعادتهم واهتدائهم بهم، ثم خصّصها في حياة وسيرة علامة عصره، عبد العزيز بن باز، الذي كان "جماعة في فردٍ، ورمزاً لطائفة، وأنموذجاً لجميل الأخلاق والصفات، وحقاً فقد كان أمةً وحده"^(٤).

وقد اكتفى الخطيب بهذه الأبيات في سياق العمرية الثانية:

مَنْ كَانَ حِينَ تَصِيبِ الشَّمْسِ جِبْهَتَهُ
وَيَأْلَفُ الظِّلَّ كِي تَبْقَى بِشَاشَتُهُ
أَوْ الغِبَارُ يَخَافُ الشَّيْنِ وَالشَّعْنَ
فَسَوْفَ يَسْكُنُ يَوْمًا رَاغِمًا جَدْنَا
فِي قَعْرِ مَظْلَمَةٍ غِبْرَاءَ مُوحِشَةٍ
يَطِيلُ فِي قَعْرِهَا تَحْتَ الثَّرَى اللَّبْنَا
تَجْهَزِي بِجَهَازٍ تَبْلُغِينَ بِهِ
يَا نَفْسُ قَبْلَ الرَّدَى لِمَ تَخْلُقِي عِبْنَا^(٥)

وتمثل الخطيب هذه الشواهد الشعرية في سياق حديثه عن زهد عمر بن عبد العزيز، ورقته وأينه كلما تمكّن من الدنيا، وقبض على متعه منها... وقد هانت عليه، وسهل عليه أن يمضي قدماً في أداء الأمانة التي تحمّلها^(٦).

وتمثل الخطيب لهذه الأبيات في خطبته جاء تبعا وخلفاً لما كان عليه ابن عبد العزيز بترديدها كثيراً، وهذا يجعلنا نتأمل ما اشتملت عليه "القيم الروحية الجميلة، والاستثارة الشعورية للإنسان الذي لا يعيش الفردية السلبية، وإنما ينشد سنة الحياة الطبيعية المؤقتة؛ التي يكفيها القليل العابر؛ طمعاً في السلامة والنجاة والسعادة الأبدية، وهو معني دقيق جليل يريد هذا الإنسان من نفسه ألا تغفل عنه، ولكنه يتجلى لنا في هذه الألفاظ: الغبار، الشين، الشعث، الحدث، قعر، غبراء، موحشة، الثرى، الردى...

وليس بعيداً عن هذه المعاني السامية ما جاء من الشواهد الشعرية في سياقات الحديث عن زين العابدين علي بن الحسين -رحمه الله- لشرفه وسؤدده وعلمه وكمال عقله، في معرض حديثه عن ورثة الأنبياء^(٧)؛ إذ يستدعي قول الفرزدق:

(١) منبريات، ١٥٣/٢. والأبيات في: ديوان حافظ إبراهيم، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإياري، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ط٣، ١٩٨٧م، ٨١/١-٨٢.

(٢) منبريات، ١٦٣/٢ - ١٦٤.

(٣) منبريات، ١٦٧/١.

(٤) منبريات، ١٦٩/١.

(٥) الأبيات لعمر بن عبد العزيز: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥-١٩٨٥م، ١٣٨/٥.

(٦) منبريات، ١٦٣/٢ - ١٦٤.

(٧) منبريات، ٥١/١.



هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته
هذا ابن خير عباد الله كُلهم
والبيوتُ يعرفُهُ والجِلُّ والحرمُ
هذا التقى النَّقى الطَّاهرُ العَلْمُ

إلى أن قال:

وليس قولك: "مَنْ هذا" بضائره
العُربُ تعرفُ مَنْ أنكرت والعجمُ^(١)

وكذلك عند حديثه عن حياة الإمام ابن باز، والتي عبّرت أولاً بالقسم المكرر؛ أن ما قاله في شخصه وصفاته وسيرته هي جزء يسير من كُليّ عظيم:

والله، والله، والله العظيمة وَمَنْ
إن الذي قلتُ بعضٌ مِنْ مناقبه
أقامه حُجَّةً للدين برهاننا
ما زدتُ إلا لعلِّي زدتُ نقصانا^(٢)

لكن هذه المناقب التي قيل بعضها، وغاب أو تُرك أو نُسي أكثرها، ستحكي للأجيال ملحمةً انعدم نظيرها في هذا العصر، تدعو الجميع إلى البذل والعطاء خدمةً لهذا الدين، ورَفَقًا لكلمته". حيث قال فيه:

غاب ابنُ بازٍ، وما غابت مآثره
مات ابنُ بازٍ، وما ماتت فضائله
العَلْمُ يزكو، والأخلاقُ تُحترمُ
الكلُّ يشهدُ والطَّلابُ والعَلْمُ^(٣)

فهنا العزاء في غيابه وفقده؛ خلود مآثره، وحياة فضائله، وكُلُّنا يشهد على ذلك؛ لكن شهادة الطلاب والقلم أعزُّ وأكرم وأبقى وأدوم. ومتى توثقت العرى بين العلم والعلم من جهة والعلماء والطلاب من جهة أخرى أصبح الإنسان سليماً في فكره، سعيداً في حياته، نبيلاً في أخلاقه، عظيماً مؤثراً بعد موته.

لأجل ذلك كانوا ورثة الأنبياء في العلم والتبّات عند الأحداث والخطوب و"لسانُ حال العالم مع ممتحنه ومحتنه يصدق عليه قول الشاعر:

رُبَّ مَنْ انضجَتْ غيظاً قلبه
ويراني كالشَّجا في حلقه
مُرَبِّدٌ يخطرُ مالم يرني
قد تمنى لي موتاً لم يُطع
عسراً مخرجُهُ ما يُنتزع
فإذا أسمعته صوتي انقمع^(٤)

وهذا ممّا يجعل أثر أولئك يتحدّد دهوراً، وعلمهم عيد عصوراً؛ رغم الكيد والمكر الذي يحاك لهم، لكن:

وإذا أراد الله نشـرَ فضيلةٍ
طويت أتاح لها لسانَ حـسود^(٥)

ومن القضايا الفكرية التي تناولتها الشواهد الشعرية الحياة وحقيقتها، وحالاتها، فيقول مستدعيًا شاهداً متداولاً في كتب الوعاظ:

(١) منبريات، ٥٨/١. ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ٥١١-٥١٢.

(٢) منبريات، ١٧٤/١. ديوان الفرزدق، ص ٤١١-٤١٣.

(٣) منبريات، ١٧٤/١.

(٤) منبريات، ٦٧/٢. والأبيات لسويد بن أبي كاهل: البغدادي، الخزائنة، ٥٤٦/٢.

(٥) منبريات، ٦٨/٢. والبيت لأبي تمام، ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ٢١٣/١.

ومما حاللتنا إلا ثلاثاً
وأجر ما يُسمّى المرء شيخاً
شبابٌ ثم شبيبٌ ثم موثٌ
ويتلوه من الأسماء ميثاً^(١)

ثم يستدرك قائلاً: "هذا إن لم يقطع الطريق هاذم الذات، دون أن يكمل المرء هذه الأحوال، كما قد يدرك الزرع أفةً قبل بلوغ الحصاد"^(٢). وهو استدراك في محله، لكنه يحتاج إلى أدلة قوية وبليغة، فكان هذا الشاهد:

أيا ابن آدم لا يغررك عافية
ما أنت إلا كزرع عند خضرته
عليك ضافية فالعمر معدود
بكل شيءٍ من الآفات مقصود
فإن سلمت من الآفاق أجمعها
فأنت عند كمال الأمر محصود^(٣)

ويسوق أيضاً في (وقفه صادقة) هذا الشاهد:
يغر الفتى مرّ الليالي سلمة
وهنّ به عمّا قليل عواثر^(٤)

وهذه الحياة وحقيقتها وحالاتها تجعل من الموت والمصير عظة وذكرى، وتخويفاً وإنذاراً، وأن الموت رحلة وفتنة من المنزل الفاني إلى المنزل الدائم الباقي:
وما الموت إلا رحلة غير أنّها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي^(٥)

المبحث الثالث: القضايا الاجتماعية

لا يكاد ينجح صاحب فضيلة أو فكرة أو إصلاح إلا بالكلمة البليغة، والحجة الظاهرة، والخطبة الباهرة^(٦).

وخطبة الجمعة ميدان فسيح لكل إصلاح وفضيلة وفكر صائب، ويأتي موضوع المرأة في الصدارة من هذه الفضائل؛ لأنها الأم والأخت والزوجة، وهي ضربٌ عزيز ليس له في أنواعه ضريب، واختلاله يعني اختلال الفضيلة والقيم... "فهي نصف المجتمع وأساسه، وعمارة البيت وزهاؤه، ونوره وجماله، هي مربية الأطفال، وأم الرجال، هي بناء صلب، فإما أن تقوم عليه أعمدة الخير، وإما أن تتحطم عليه أمال الرقي والبناء"^(٧).

وقد اجتمعت هذه القيم والفضائل والمحاسن في الأم التي صلاحها صلاح للبيت، بل للمجتمع بأسره. لذلك جاء في سياق هذه القضية قول الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق

(١) منبريات، ٢١٥/١.

(٢) منبريات، ٢١٦/١.

(٣) المصدر السابق، ٢١٦/١. والأبيات لابن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ص ٣١٤.

(٤) منبريات، ١٩٧/١. البيت لكلثوم بن عمرو العتابي لكن لم أجد ديوانه.

(٥) المصدر السابق ج ٢/٢١٦. والبيت لأبي العتاهية، ص ٢٨٩.

(٦) انظر: منهج في إعداد خطبة الجمعة، د. صالح بن عبد الله بن حميد، ط ١٩٤١هـ، وزارة الشؤون الإسلامية.

(٧) منبريات، ١٣٨/١.



الأمُّ روضٌ إنَّ تَعَهَّدَهُ الحِيا
الأمُّ أستاذُ الأساتذة الألى
بـالرِّيِّ أُرُقِّ أَيْمًا إِيراق
شغلتُ ماأثرهم مدى الأفاق^(١)

إنَّ هذا الشاهدَ الشعريَّ يملك كثيرًا من القيم الكريمة، والحقائق التي لا يلحق بها خيال، ولا يملؤها فؤاد.

فهذه المرأة -الأم- مدرسة، وروض، وأستاذ الأساتذة، ومن هذه الكلمات نقرأ تضخيم الذات الاجتماعية الأصل -الأم- وأحقيتها في الشعور بالقوة الناعمة، والأثر الجميل الدائم، فالإعداد يقتضي القوة، والحياء يعقبه الإبراق والخضرة والجمال...

وحتى لا يكون الأمد قريبًا ختم الشاهد بهذا البيت:

الأمُّ أستاذُ الأساتذة الألى
شغلتُ ماأثرهم مدى الأفاق

حتى لا يشعرُ المستمعُ بنهاية الأثر، أو تفاوت منزلته، أو تجاهل قدره، فهي: أستاذ الأساتذة، وستبقى ماأثرها (مدى الأفاق).

ولذلك تستحق الترحاب والفرصة بقدمها؛ لما جاءت إلى الدنيا كمولودة، يُقال لها ما قاله صاحبُ بن عباد، وهو يهتئ صاحبًا له رُزق بنتًا، فقال:

"أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأمّ الأبناء، وجالبة الأصرار، والأولاد الأطهار، والمبشيرة بأخوة يتناسقون، ونجباء يتلاحقون"^(٢)، ثم استدعى قول المتنبي في هذا السياق:

فلو كان النساءُ كمن دُكِرْنَ
وما التأنيثُ لاسم الشمسِ عَيْبٌ
لُفَضِّلَتِ النساءُ على الرجالِ
وما التذكيرُ فخرٌ للهلال^(٣)

ويستمرُّ في الحديث عن مكامن هيبتهَا وعزِّها، طالبًا منها - المرأة - أن تجيب الأصوات الماكرة والمتاجرة؛ قائلةً لهم غير هَيَّابَةٍ ولا وجلة:

بيدِ العفافِ أضونُ عزَّ حجابي
ما ضَرَّنِي أدبي وحُسْنُ تعلُّمي
وبعضمتي أعلو على أترابي
ما عاقني حَجلي عن العلياء ولا
إلا بكـونِي زهرة الألبابِ
سَدُّ الخمارِ يلمَّتني ونقابي^(٤)

لأنَّ الإسلام أَرادها تعيشُ جوهرةً مصونةً في سماءِ المجد، وعلياء الكرامة؛ لا سلعةً مبدولة تتخطفها الأيدي والأنظار؛ لذلك جعل نبلها وفخرها في هذا الشاهد:

فَحَسْبُكَ نَبلاً قاله النَّاسُ: أَنْجَبَتْ
وحَسْبُكَ فخرًا أَنْ يَصوتَكَ باب^(٥)

وهنا يظهر بيان الشاهد الشعريِّ وإيجازه في إيصال الفكرة، أو لنقل: تأكيد المعنى المساق في طَيَّاتِهِ، فهو يُمَهِّدُ بقوله في خطاب طويل، منه: "حَبَابُكَ الزمي، وبينك احْرُسي، وعلى راحة زوجك احْرُسي، وأبناءك وجَّهِي وأرشدني؛ تنالي حظِّي الدنيا والآخرة"^(١).

(١) منبريات، ١٤٣/١. والأبيات من قصيدة لحافظ إبراهيم، ديوانه، دار العودة، بيروت، ١٩٣٧م، ٢٨٢/١.

(٢) منبريات، ١٤١/١.

(٣) ديوان المتنبي، ١٨/٣.

(٤) منبريات، ١٤٧/١. والأبيات لعائشة التيمورية، ديوانها، ص ٢.

(٥) منبريات، ١٤٨/١. والبيت لمصطفى صادق الرافعي، عودة الحجاب، محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار طيبة (توزيع دار الصفة)، ط ١٠، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ١٩١/١.

وفي سياق الحديث عن قضية المرأة، يتعجب من تأنيث الرجال، ولا يعجب من ترجل النساء، فيأتي بهذا البيت للرافعي:

وما عجبني أن النساء ترجلت
ولكن تأنيث الرجال عجاب^(٢)

ولعل هذا البيت يختزل سخطاً كبيراً، ولو ما قوياً على الرجال؛ حين تخلوا عن قوامتهم وقيادتهم، والتي أوجزها البيت في كلمة (تأنيث) وهي كلمة جارحة ومؤلمة في حق الرجل، ولا أعتقد وجود أكثر منها قدحاً في قاموس اللغة البيانية.

ويذكر في مقام آخر^(٣) مظاهر تستدعي اختلال الفضيلة في حق المرأة، وانتشار الجريمة، ويختصر أسبابها وسبيلها قائلًا: حتى صدق على الحال قول القائل:

نظرة، فابتسامة، فسلام
فكلام، فموعد، فلقاء^(٤)

وقد يكون في هذا البيت من الدلالات والإشارات والإيحاءات ما يكفي الخطيب عن التفصيل والبيان.

ومما خص في هذا الباب القراءة والأبناء، والجيران، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشواهد الشعرية العاجلة، التي لم تكن إلا إلماحات موحية، دون أن يسرد الأبيات سرداً ملفتاً، أو يكرّر المعاني تأكيداً وتنوعاً. فيأتي في حديثه عن الشباب والإجازة، بقول الشاعر أبي العلاء المعري:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا
على ما كان عوده أبوه^(٥)

وفي شأن القرابة يكتفي بما واجهه النبي ﷺ من قومه وعشيرته من الأذى والاضطهاد، ثم يعقب بقول طرفة:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً
على النفس من وقع الحسام المهند^(٦)

وكأنه بهذا المثال يضعنا أمام واقع مرير، لا بد أن يصبر عليه ويحتمله.

وفي موضوع الركن السادس؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكتفي بقول القائل:

ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب
فمن يعظ العاصين بعد محمد؟!^(٧)

أمّا عند حديثه في الإحسان إلى الجيران؛ فيسوق ثلاثة شواهد شعريّة، ربّما يكون السبب في تكتيفها -بعد أهميّة الموضوع ولا شك- أنّها من النماذج والأبيات الدارجة على الألسنة، لاسيما الدعاة والخطباء، يقول أولها:

يلومونني أن بعثت بالرخص منزلي
ولم يعرفوا جازاً هناك يُنعص

(١) منبريات، ١٤٨/١.

(٢) منبريات، ١٥٢/١. والبيت للرافعي في المرجع السابق، ١٩١/١.

(٣) انظر: منبريات، ١١٥/٢.

(٤) منبريات، ١٢٣/٢. والبيت لأحمد شوقي، في الشوقيات، مج ١، ج ١١٢/٢.

(٥) منبريات، ٢٠٩/٢. والبيت في ديوان أبي العلاء المعري، المنتخب من اللزوميات، مركز الأبحاث والدراسات، دمشق، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٤٩.

(٦) منبريات، ٣٢/٢. ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به حمود طماس، دار المعرفة بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٣٦. وفيه (على المرء).

(٧) منبريات، ٧٧/١. والبيت لابن رجب الحنبلي، لطائف المعارف، ص ١٩.



فقلتُ لهم: كَفَّوْا السَّمْلَامَ فَإِنَّمَا بجيرانها تَعْلُو الدِّيَارَ وترخُصُ^(١)

ويعقَّب مباشرةً على هذين البيتين قائلاً: "الجارُّ قبل الدار، والرفيق قبل الطريق"^(٢)، ثم يأتي بعد ذلك بهذا الشاهد:

اطلب لنفسك جيراناً تجاورهم لا تصلح الدارُ، حتى يصلح الجار^(٣)

أمَّا الثالث من الشواهد في هذه القضية فقد جاء أخفَّ جدَّةً في القول والمعاملة، على خلاف الشاهدين السَّابِقين؛ اللذين كانت الصَّرامةُ والشِدَّةُ والسَّرعَةُ ظاهرةً في التفاعل معها، وهذا التعاطي المختلف تحكمه الأحداث، فربَّما يحتاجُ الجارُّ أحياناً إلى الارتحال، وطلب جوارٍ غير جواره، وهو ما عناه واحتاجه الخطيب في سياقه الشعري، الذي اكتفى بتعليقه في الشطرين الأخيرين من الشاهدين، وهما:

(بجيرانها تَعْلُو الدِّيَارَ وترخُصُ) و(لا تصلحُ الدارُ، حتى يصلحُ الجار) لأنَّ فيها مسوِّغاً مقنِعاً. لكن حينما يحتاج الموقف إلى معالجةٍ يسيرة، وعتابٍ لطيف، فالشاهد هنا يختلف اختلافاً كلياً، ولكلِّ مقامٍ فقال، ولذلك كان هذا الشاهدُ غايةً في المكارم والفضل والحلم، يقول فيه:

أقول لجارِي إذ أتاني معاتباً إذا لم يصل خيرِي وأنت مجاورِي
مُدلاً بحَقِّ أو مُدلاً بباطِلِ إليك فما شَرِّي إليك بواصل^(٤)

ويأتي عند حديثه عن المجد والمعالي والهمة في طلبها، بقول الشاعر المتنبي:
لا تحسبنَّ المجد تمراً أنت أكلُهُ لن تبلغَ المجد حتى تلعق الصِّبراً^(٥)

ويكتفِ الشواهد المؤكِّدة لهذا المعنى بقول المتنبي:
ولم أرَ في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام^(٦)

وبقوله أيضاً:
وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام^(٧)

وأخيراً جاء برسالةٍ مقتضبة في بيتين وجهها إلى كُلِّ مَنْ أَحَسَّ بضعف همته، فقال:
إذا كنت تُؤدِّي بحرَّ المصيفِ ويُبِّس الخريف، وبَرْدِ الشتاء
ويُلهيك حُسُنُ زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي متى؟^(٨)

(١) منبريات، ١٠٨/١. البيتان للقاضي عبدالرب المالكي، جامع الكتب الإسلامية، المحاضرات في اللغة والأدب، ١٠١/١، ١٧-١٠١-٨٦-١ #p=١٠١&part=١
<https://ketabonline.com/ar/books/٨٦/read?page=١٠١&part=١>

(٢) منبريات، ج ١٠٨/١.

(٣) منبريات، ج ١٠٨/١. والبيت لا يعرف قائله.

(٤) منبريات، ١٠٣/١. والبيتان لا يعرف لهما قائل.

(٥) منبريات ٩٤/٢. البيت لأبي المهوش حوط بن رثاب الأسدي، سبط اللالي في شرح أمالي القالي، للبكري تحقيق

عبد العزيز الميمني الراجكوتي. ولم أعثر على المصدر.

(٦) منبريات، ٩٤/٢. ديوان المتنبي، ١٤٥/٤.

(٧) منبريات، ٩٥/٢. ديوان المتنبي، ٣٤٥/٣.



وفي سياق القضايا الاجتماعية يأتي الشاهدُ محذراً من الترف والجنوح إلى اللهو، والغفلة عن شكر النعم الغزار بهذين البيتين المتداولين - كثيراً - في سطحية ظاهرة^(٢):

إذا كنت في نعمةٍ فارعها فإن المعاصي تزيلُ النعمَ
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

المبحث الثاني: السمات الفنية في الشواهد الشعرية

أ- المستوى المعجمي والتركيبى:

خطبة الجمعة تعتمد على إثارة العاطفة لتحبيب في الخبر وتنقير من الشر، وتوجهه إلى الله وحبه وخشيته، وقلوب السامعين مصغية إليها؛ لأنها تصلهم بخالقهم، وتعلو بهم عن الأرض إلى السماء، وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، فالخطيب يتكلم^(٣)، والموضوع ديني واجتماعي وفكري، وغاية الخطيب التأكيد على هذه الموضوعات، فكثرت مفردات لفظ الجلالة؛ (الله) في موضوعاته وقضاياها الإسلامية الدينية والفكرية والاجتماعية، وعمرت أسماؤه الحسنى قاموس شواهد، مثل: الإله، العظيم، المليك، الواحد، الرحمن، رب، لكن أكثرها تكراراً اسم (الله) فقد جاء ثلاث عشرة مرة؛ من ذلك:

والله، والله، والله العظيم ومَنْ أقامه حجةً للدين بُرْهاناً^(٤)

ومنها قول الشاعر:

وإذا أراد الله نشور فضيلةٍ طويت، أتاح لها لسان حسود^(٥)

وقوله في الفوائد المنسية:

جزى الله الشدائد كُـلَّ خيرٍ عرفتُ بها صديقي من عدوي^(٦)

وهذا التكتيف في لفظ الجلالة (الله) في الشواهد الشعرية ليس لغرضٍ يختلف باختلاف السياق الذي جاءت ضمنه؛ بل لتأكيد المناجاة والعبودية المطلقة له سبحانه، وهو اسم أسماء الله الحسنى يُستعذب في السراء والضراء، وأكثر أسماء الله شيوخاً، وقد اختار بعض أهل العلم؛ أنه الاسم الأعظم لله تعالى؛ لأنه دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى^(٧).

(١) منبريات، ١٠٢/٢. ابن فارس، الصحابي في فقه اللغة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ٢٧٠/٢.

(٢) منبريات، ٩١/١. ديوان الإمام علي، دار الغد الجديد، جمع وتعليق أحمد محمد شتيوي، ٢٠٢١م، ص ٣٤.

(٣) انظر: فن الخطابة، أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، بدون. ت. ط. ص ٩٩.

(٤) منبريات، ١٧٥/١.

(٥) منبريات، ج ٦٨/٢. ديوان أبي تمام، ٢١٣/١.

(٦) منبريات، ج ٣١٨/٢.

(٧) انظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد الحمود النجدي، ط٨، ١٤٢٨هـ، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، ٧٤-٦٥/١.

وقد ساق فخر الدين الرازي في كتابه: (شرح أسماء الله الحسنى) حجج مَنْ قال: إنَّ الاسم الأعظم هو (الله) منها: إنَّ هذا الاسم ما أُطلق على غير الله تعالى، فإنَّ العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة؛ إلاَّ هذا الاسم فإنَّهم ما كانوا يطلقونه على غير الله ﷻ، والدليل عليه قوله تعالى: **ثُمَّ لَوْنٌ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** (سورة لقمان، الآية: ٢٥) وقال تعالى: **ثُمَّ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** (سورة مريم، الآية: ٦٥). معناه: هل تعلم من اسمه الله؛ سوى الله؟

ولأنَّ المعجم الديني هو السيد في قاموس الخطبة والخطيب، فنجد الألفاظ الآتية: (الحلُّ، الحرم، النقي، الطاهر، العبادة، الشهيد، تكذب، الحرمين، النَّقي، ظلم، النفس، عابد، دماء، نار، بني، فضيلة، حسود، الصبر، العبر، الدنيا، العدل، الموت، الغاني، القلب، الإسلام، المستصنعون، أسرى، قتلى، أنصار، الخير، النجاة، مباح، الشدائد، مُعَدَّب، عالم، علم، اغفر، الرضا، دموع، قبر، يعظ، مذنب، المعاصي، شكر، النعم، النقم، الدين، برهان، الخمار، القلم، ميت، شيخ، شُدِّدًا، تالله، آية...)

وتتوالى ألفاظ المعجم الديني في الشواهد الشعرية في نظام سلس منطقي؛ لترسم لنا معالم هذا المعجم في صورة ماثلة تعكس ما قاله ابن رشيق: "اللفظ أعلى من المعنى ثمنًا، وأعظم قيمة" (١)؛ لذلك كانت الألفاظ "هي لبنات البناء الشعري والأدبيِّ عمومًا، وتؤثر اللفظة الواحدة في الكلام بعامَّة، من جهة موافقتها لقواعد كلام العرب ومخالفتها له، ومن جهة دلالتها على المراد، ومستوى أدبيتها، وطولها، وقصرها، وجزالتها، ورقتها، وإفرتها، وغرابتها، وإيحائها... ولا ريب أنَّ هذه التأثيرات قويَّة ومهمَّة" (٢).

هذا وإنَّ القارئ للشواهد الشعرية سيلاحظ -بجلاء- معاني الإسلام، والقرآن، والجنَّة، والنار، والدنيا، والآخرة، والرسول ﷺ، والرَّسالة، والفضيلة، والرذيلة، وما ينسحب على هذه المعاني. لكنَّ الملفت للنظر - هنا - احتلال لفظة (الأم) لمساحة واسعة في الشواهد الشعرية وكذا الألفاظ القريبة منها ك: النساء، والصفات اللازمة لها؛ ك: العفاف، والحياء، والخجل، والخمار، والأدب، والنقاب...، فيأتي بهذا الشاهد في سياقين مختلفين؛ الأول في خطبة عبد الفطر:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق (٣)

ويكرّر الاستشهاد به في حديثه عن المرأة وعملها ونقابها، لكنَّه عزَّز هذا البيت ببيتين آخرين:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق
الأمُّ روضٌ إنَّ تعهده الحبيب بالريِّ أورق أيما إبيراق
الأمُّ أستاذة الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مدى الأفاق (٤)

وتكرار لفظة (الأم) وما يؤدي إلى معناها ومفهومها من الصفات والأسماء يُحيل إلى ما يعيشه الخطيب؛ ويحسُّ به ويحمله تجاه قضية المرأة بشكل عام، وأنها قضية أمة ومستقبل؛ لذلك قال في خطابه لها: "أمَّا أنتِ أيتها المرأة المسلمة، فأنتِ في الإسلام دُرَّةٌ مصونة، وجوهرة، مكنونة. أنتِ مُعلِّمةُ الحياء والعفة، وبانية الرجال، والأسرة، وطريق السكّن والمودة.

إنَّ كنتِ أمًّا فأنتِ الأمُّ الرُّوم، وإنَّ كنتِ أختًا فأنتِ الأختُ الحنون، وإنَّ كنتِ زوجًا فأنتِ الزوجُ الحصانُ الودود. اهتَمَّ بكِ الإسلام ليحفظك في سماء الفضيلة، ونزّهك وطهرك من كلِّ رذيلة.

(١) العمدة، ابن رشيق القيرواني، ص ١٢٧.

(٢) الصورة الفنية، إبراهيم الغنيم، ص ١٩٠.

(٣) منبريات، ٣٤٠/٢.

(٤) منبريات، ١٤٣/١. ديوان حافظ إبراهيم، دار العودة، بيروت، ١٩٣٧م، ٢٨٢/١.



النساء في الإسلام شقائق الرجال، ومصانع القادة والأبطال" (١) من هنا نعلم أن الخطيب يكرّر ما يشعر به، ويهتمّ له، فتظهر كلماته موحيةً بتلك المشاعر والاهتمامات. وإذا انتقلنا إلى الشقّ الآخر وهو المستوى التركيبي؛ فإننا نجد عادياً أو متوسطاً، وواضحاً في شواهد إلى حدّ السطحيّة، ومداولة الشواهد والأبيات السيّارة؛ كقول طرفة:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهنّد (٢)

وبيت المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام (٣)

وبيت أبي العلاء المعري:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عودَه أبوه (٤)

وغير ذلك من الأبيات لشعراء آخرين عبر العصور. وتأتي الشواهد الشعرية متأثرةً بالقرآن الكريم والسنة النبوية، اقتباساً ظاهراً وخفياً. ومن أمثلة الاقتباس الظاهر؛ قول ابن المبارك:

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب (٥)

قال تعالى: **زَوْلاً تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ** (سورة البقرة، الآية: ١٥٤)، وقال سبحانه: **زَوْلاً تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ** (سورة آل عمران، الآية: ١٦٩). ومنها كذلك قوله:

ولقد أتانا من مقال نبيّنا
لا يستوي وغبار خيل الله في
قول صحيح صادق لا يكذب
أنف امرئٍ ودخان نار تلهب (٦)

وقد جاء في الحديث: "لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً..." (٧). ويأتي الاقتباس خفياً في مثل هذا البيت:
ألم تر أن جمع القوم يخشى
وأن حريم واحد هم مباح (٨)

قال تعالى: **زَوْلاً تَنَارَ عُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** (سورة الأنفال، الآية: ٤٦). وقال سبحانه: **زَوْاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** (سورة آل عمران، الآية: ١٠٣).

(١) منبريات، ٣٤٠/٢.

(٢) منبريات، ٣٢/٢. ديوان طرفة، ص ٣٦.

(٣) منبريات، ٩٥/٢. ديوان المتنبي، ٣٤٥/٣.

(٤) منبريات، ٢٠٩/٢. ديوان أبي العلاء المعري، المنتخب من اللزوميات، مركز الأبحاث والدراسات، دمشق، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٤٩.

(٥) منبريات، ٦٢/٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٤٠/١٢.

(٦) منبريات، ٦٢/٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢٤٠/١٢.

(٧) الألباني، صحيح الجامع (٧٦١٦) رواه أبو هريرة.

(٨) منبريات، ٢٩٧/٢. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، ١٤٢٠هـ، ٣٣٣/١.



ومن الاقتباس الخفيّ أيضًا ما جاء في سياق الحديث عن عظمة الخالق وقدرته والتفكير في آياته ومخلوقاته:

تفكّر في نبات الأرض وانظر
عيونٌ من لجينٍ ناظراتٌ
على فُضْبِ الزَّبْرِجِدِ شاهداً
إلى آثار ما صنع المليكُ
بأحداقٍ هي الدّهْبُ السببِكُ
بأنّ الله ليس له شريكٌ^(١)

قال سبحانه: **رُوسَخَر لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (سورة الجاثية، الآية: ١٣)، وقال تعالى: **رَأَلِمُ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ** (سورة البلد، الآية: ٨)، وقال سبحانه: **رُوفِي أَنْفُسِكُمْ أَقَلًا تُبْصِرُونَ** (سورة الذاريات، الآية: ٢١)، وقال تعالى: **رُفُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** (سورة يونس، الآية: ١٠١).

ب- التكوين المكاني الفني الوظيفي للشاهد الشعري:

جاءت علاقة الشاهد الشعري بموضوعات الخطبة مُطْرَدَة، وفي تناغمٍ سياقيٍّ مقصود في أغلب الشواهد، لكن نجد أمامنا بعض ما يستدعي الطرح والمناقشة في هذا الباب، من ذلك: هل يمكن للخطيب الاستغناء عن الشواهد الواردة؟ وما مدى تأثيرها في الخطبة وأهدافها؟ وهل تأثير تلك الشواهد تأثيراً مؤقتاً، أم يظل مؤثراً إلى مدى أطول، ويمتد إلى أن يتجاوز زمن الخطبة؟

وحتى نستطيع الإجابة عن هذه التساؤلات؛ فلا بدّ لنا أن نتعرّف على الوظيفة الفنيّة المكانية للشاهد، والتي جاءت على النسق التالي:

١- التقديم:

فيأتي في بعض خطبه بالشاهد الشعري في أول ومبدأ خطبته، ثم يأتي بعبارات الاستهلال التي توحى للسامع بمقصوده؛ ممّا يشد الانتباه، ويهيئ النفوس^(٢)، فيجعل بعد مقدمته التقليدية مباشرة شاهداً شعرياً، ينطلق مع مستمعيه في نشوة الجمال اللفظي والسبك الفني والمعنى الإيحائي الدقيق. وقد استخدم الخطيب الاستهلال والتقديم بشاهد شعري في موضوعين فقط – من بين تسعة وعشرين موضوعاً تضمّنت شواهد شعرية كثيفة – أولها: في موضوع (قاصمة الظهر)^(٣) فبعد المقدمة المعتادة؛ قال: قبل أكثر من ألفٍ وأربعمائة عام حصل حادثٌ جللٌ، ومصائبٌ للعقول حجبٌ، يصدق عليه قول الشاعر:

دهى الجزيرة أمرٌ لا مردّ له هوى له أحدٌ وانهدّ تهلان^(٤)

وبعد هذا الشاهد المفاجئ بيّن الحدث الجلل قائلاً: الحديث في هذا الموضوع يؤلم النفوس، ويهيج الدموع إنّه الحديث عن قاصمة الظهر ومصيبة العمر... ذلكم هو وفاة قائدنا وحبیبنا وقدوتنا محمدٍ عليه أزكى الصلاة والسلام..."^(٥).

وهنا ابتداء بهذا الشاهد، وإن كان دون قاصمة الظهر – ولا ريب – لكنّه أراد لفت الأنظار، وجذب العقول بشاهد جاءت أولُ ألفاظه: دهى؛ وفيها دلالةٌ على ما يسوء من عظام الدهر ونوبه.

(١) منبريات، ٢/٢١٠. والأبيات لأبي نواس، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ٢/٥٩٥.

(٢) انظر: منهج في إعداد خطبة الجمعة، صالح بن حميد، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية، ١٤١٩هـ، ص ٢٣.

(٣) منبريات، ١/٤١.

(٤) منبريات، ١/٤١. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ٤/٤٨٧.

(٥) منبريات، ١/٤٢.



وليس أعظم هولاً وفاجعة من موته ﷺ^(١)، ولذلك قال لنا ﷺ: "إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي؛ فإنها أعظم المصائب"^(٢).

ورغم وجود النماذج الشعرية الأقوى والأخلد في هذا الموضوع^(٣)، والتي قطعاً -لا تغيب عن ذهن كلِّ متحدثٍ فيه فضلاً عن خطيبٍ تستمع إليه الجموع وتجتمع عليه، لكنَّ محتوى هذا البيت يختصر الوصولَ إلى المقصود؛ وهو استمالة واستشارات الأسماع والمشاعر والعاطفة، دون أن يُعرف المراد مباشرةً، فيجعل منهم -المستمعين- شعوراً واحداً، يخضع لسلطان الوجدان، ويتلَهَّف إلى المزيد ممَّا يستندُ به نحو الأمر المقصود؛ لذلك على الخطيب أن يثير بخطبته العاطفة والشعور؛ لينقل أحاسيسه ومشاعره إلى الجمهور^(٤).

الثاني: جاء في موضوع الخطبة المائية، فقد أورد في مطلعها بقول الشاعر:
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحد^(٥)

وهنا يوحى الشاهد ومفهومه الظاهر بخلاف الموضوع المراد الذي بيّنه فيما بعدُ قائلاً: "ومن أعظم النعم الإلهية: ما خرجتم في هذه الساعة تطلبون وترجون، إنها نعمة الماء والغيث والمطر"^(٦).
وذلك خلا من شدِّ الانتباه وإثارة الحماس؛ كونه جاء اندفاعاً في موضوع معروفٍ مسبقاً.

٢- الوصل:

وقد يأتي بالشاهد الشعري للوصل بين نصّين نثريين في موضوع واحد، ويأتي بهدف الاستدلال كما في قوله: "وليس من شرط النّاهي أن يكون سليماً عن معصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً، وقال بعض الأصوليين: فرضٌ على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضاً، وفي قوله تعالى: **زَكَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** (سورة المائدة، الآية: ٧٩) دليلٌ على أن فاعل المنكر يجب عليه إنكاره، وصدق الشاعر؛ إذ يقول:
ولو لم يعظ في الناس من هو مذنبٌ فمن يعظ العاصين بعد محمّد؟!^(٧)

فهنا جاء الشاهد دليلاً -وإن كان ثانوياً- على إثبات ما أراده.
ومثله ما جاء في حديث الإحسان إلى الجار: "وفي المقابل فإنَّ أحدَهم اضطرَّ إلى بيع منزله بأزهد الأثمان من أجل جاره وحين لآمه الناسُ قال لهم:
يلومونني أن بعثت بالرُّخص منزلي ولم يعرفوا جاراً هناك يُنعصُ
فقلتُ لهم: كُفُّوا الملامَ فإنَّما بجيرانها تغلو الدِّيارُ وترخُّصُ"^(٨)

ويأتي الشاهد الشعري بهدف الإيضاح والشرح، ومثاله: "فمن أراد حسن الخاتمة فلا بدَّ أن يبذل أسبابها:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إنَّ السفينة لا تمشي على اليابس"^(٩)

(١) قال الحافظ ابن كثير: فاشتدت الرؤية بموته ﷺ، وعظم الخطب، وجلَّ الأمر، وأصيب المسلمون في نبيهم ﷺ.

(٢) صحيح الجامع، للألباني، رقم (٧٨٧٩).

(٣) كقصيدة الرثاء عند: حسان ﷺ، وكعب بن مالك، وغيرهما.

(٤) فن الخطابة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، بدون ت. ط. ص ٤٩.

(٥) منبريات، ج ٢٩٥/١.

(٦) منبريات، ٢٩٦/١.

(٧) منبريات، ٨٥/١.

(٨) منبريات، ١٠٨/١.

وأوضح منه قوله: "كان حفظ حقّ الجار وحرمته، وصيانته عرضه ومنزلته من مفاخر أهل الجاهلية الأولى ومكارمهم، حتى قال قائلهم:
أقولُ لجاري إذ أتاني مُعَاتَبًا إذا لم يصل خيري وأنت مجاوري
مُدِلًا بحقّ أو مُدِلًا بباطل إليك فما شرّي إليك بواصل"^(١)

ويكون بهدف التأكيد لمعنى مُساقٍ -حتى وإن كان مُؤكِّدًا- أو ما يصح أن يفهمه فضلًا كما جاء في حديثه عن مراحل حياة الإنسان، فينتقل من الطفولة والضعف إلى الشباب والقوة، ومنها إلى الهرم والضعف، وخلال ذلك يتبدّل حاله من الصِحَّة إلى السَّقَم، ومن السَّقَم إلى الصحة: **رَأَى اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** (سورة الروم، الآية: ٥٤).

ومما حالاتنا إلا ثلاثٌ وشبابٌ ثم شيبٌ ثم موتٌ
وأخرٌ ما يُسمّى المرءُ شيخًا ويتلوهُ من الأسماء ميث"^(٢)

وقوله في صاحبة المعالي: ومن رزق همّة عاليةً يُعَدِّب بمقدار علوّها، كما قال الشاعر:
وإذا كانت النفسُ كبّارًا تعبتُ في مرادها الأجسام"^(٣)

٣- المعاطلة والتمايز:

وهي المغايرة والاختلاف الكليّ عن سياق الخطبة وموضوعها، وأن يدخل في الحديث ما ليس من جنسه معنى ومرادًا^(٤). فيجىء الشاهدُ مختلفًا عن مضامين الخطبة، باتّراء موضوعها بشاهدٍ شعريّ معاضل -حتى وإن حاول التمهيد له والتوطئة بكلماتٍ ربّما خفّت من المعاطلة في نظره- من ذلك ما جاء في خطبة (ربيع المؤمن)^(٥) والحديث فيها عن اغتنام الشتاء بالصيام والقيام؛ حيث يقصر فيها النهار، وفيه يطول الليل، فيتمكن المرء من أخذ حاجته من النوم، ثم الاستيقاظ بجديّ ونشاط لقيام الليل"^(٦).

وبعد تطوافه حول هذا الموضوع، ينصرف في حديثه إلى هذا الشاهد:

تفكّر في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنّع المليءُ
عيونٌ من لجينٍ ناظراتٌ بأحداقٍ هي الذهبُ السبيكُ
على فُضْب الزبرجدِ شاهداتٌ بأنّ الله ليس له شريكُ"^(٧)

(١) منبريات، ١٠٨/١. والبيت لأبي العتاهية، ديوانه، ص ٢٣٠

(٢) منبريات، ١٠٢/١ - ١٠٣.

(٣) منبريات، ٢١٥/١.

(٤) منبريات، ٩٥/٢. ديوان المتنبي، ٣٤٥/٣.

(٥) انظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ٥٨.

(٦) منبريات، ٢٠٩/١.

(٧) منبريات، ٢١٠/١.

(٨) منبريات، ٢١٠/١. تنسب الأبيات لأبي نواس، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ٥٩٥/٢.



وَيُعَقَّبُ بعده قائلًا: "ومن التَّعَمُّ التي ينبغي تذكرها في هذه الأجواء الباردة؛ نعمة الدفء التي سخرها الله لنا في المساكن والملابس"^(١).

فلاحظ -هنا- معاطلة ظاهرة في الشاهد عن موضوع الخطبة بشكل عام، وعن السياقين -السابق واللاحق- للشاهد الشعري. فمضمون الشاهد الدعوة إلى التفكّر والتأمّل؛ وهي عبادة قلبيّة، يقوم بها قلب العبد دون جوارحه^(٢). وقد جاءت في أول كلمة من الشاهد؛ (تفكّر) من "فَكَرَّ فِكْرًا وَفَكَّرًا فِي الْأَمْرِ: أَعْمَلَ عَقْلَهُ فِيهِ وَتَأَمَّلَهُ، وَفَكَّرَ الَّذِي جَمَعَهُ أَفْكَارًا: إِعْمَالَ الْعَقْلِ فِي الْمَعْلُومِ لِلْوَصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَجْهُولٍ"^(٣).

فالتفكّر إذن: هو عملٌ قلبيٌّ يُتَوَصَّلُ به إلى مطلوبٍ بشيءٍ على شيءٍ. أمّا موضوع الخطبة فعبادة عمليّة -القيام والصيام- ودعوة إليها، وحثّ عليها، وهنا تفقد الخطبة وحدتها الموضوعيّة، وانسجامها وتناسقها، ويقع الاضطراب في العرض، ويصاب السامع بالنتشنت الناتج عن الاستطراد والحشو الذي سيقع فيه الخطب لا محالة^(٤).

ولذلك فإنّ التركيز على فكرة واحدة يجعلها أخلد في عقل المستمع، وأثبت في قلبه. ومثله -وربما أكثر معاطلة- ما ورد في خطبة (حياة أوقفت الله)^(٥) وموضوعها سيرة الإمام عبد العزيز بن باز -رحمه الله- يقول: "إنّ الشيخ -بحقّ- كان ممن يُذَكَّرُ بالله والدَّارُ الآخرة، فكان بقيّة السلف، وإمام الخلف"^(٦). ثم يسوق هذا الشاهد من شعره:

والله، والله، والله العظيمة وَمَنْ
أَقَامَهُ حُجَّةً لِلدِّينِ بُرْهَانًا
إِنَّ الَّذِي قَلْتُ بَعْضٌ مِنْ مَنَاقِبِهِ مَا زِدْتُ إِلَّا لَعَلِّي زِدْتُ نَقْصَانًا^(٧)

فقد جاء الشاهد بعيدًا عن السياق، بل ومفاجئًا بترادف القسم فيه -والله والله والله العظيم- دون حاجة المقام له، فالقسم يُؤتى به لتأكيد الخبر أو نفيه حين الشكّ أو الإنكار، أو كوسيلة من وسائل نفي التهمة لتصديق الحالف في دعواه في مجلس القضاء^(٨).

بل إنّ هذا الحشد المتكرّر للقسم قد يؤدي إلى تقيض ما ينبغي الخطيب الوصول إليه، وإيصاله إلى السامعين، حين يؤدي إلى حالة شعوريّة لحظيّة -وربما تطول لاحقًا- عند السامع تجعله يتساءل: لم هذه الأقسام؟

هل أخلّ في خطبته وعرضه في (حياة أوقفت الله) كي يعتذر بهذه الأقسام؟! أو أنّه لا بدّ له من هذه الأقسام وحشدها؛ حتى يثبت -حقًا- أنّها (حياة أوقفت الله)!!
أو أنّ السامعين يحتاجون -بهذه الأقسام- إلى مَنْ يُدْخِلُ الطمأنينة في قلوبهم، ويثبت صدق ما جاء في (حياة أوقفت الله)!!

إنّ الظاهر جليًا اخترام سياق الخطبة بهذا الشاهد المعازل؛ حيث الأصل في القسم أنّ يُؤتى به في الحديث إذا تبين للمتكلّم أنّ المخاطب يرفض مضمون الخبر أو يتردّد فيه^(٩)، كما أنّه الله ﷻ نهى

(١) منبريات، ٢١٦/١.

(٢) انظر: أعمال القلوب، خالد بن عثمان السببت، مؤسسة العلم والتأصيل، ط٢، ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م، ص ٥٧.

(٣) المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق = بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م، ص ١١٠٤.

(٤) انظر: علم الخطابة وفن الإلقاء، د. السعيد شعبان الدسوقي، ط١، ١٤٤٥هـ، مكتبة المتنبّي، الدمام، ص ١٦٥ وما بعدها.

(٥) منبريات، ١٦٧/١.

(٦) المصدر السابق، ١٧٤/١ - ١٧٥.

(٧) منبريات، ١٧٤/١. ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٤١١-٤١٣.

(٨) انظر: القسم في اللغة في القرآن، محمد المختار السلامي، ط١، ١٩٩٩م، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ص ٤٠٦.

وختامًا :

فهذا عمَلٌ متواضعٌ بذلتُ فيه فُصارىَ جهدي، وما توفيقِي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيبُ. وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المراجع

- إبراهيم، حافظ. (١٩٨٧). ديوان حافظ إبراهيم، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، (ط٣). القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب،
- التيمورية، عائشة. (د.ت). ديوان عائشة التيمورية. ملتقى أهل الحديث.
- الأصفهاني، الراغب. (١٤٢٠). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١.
- الألباني، محمد ناصر الدين. (د.ت). صحيح الجامع. المكتب الإسلامي.
- البُجَيْرَمِيّ، سليمان بن محمد. (١٩٩٥). تحفة الحبيب على شرح الخطيب = حاشية الجبرمي على الخطيب، دار الفكر.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٤٢٢). صحيح البخاري. تحقيق جماعة من العلماء. (ط١). بيروت: دار طوق النجاة.
- البغدادي، أبو بكر. (١٩٩٧). خزانة الأدب. تحقيق عبدالسلام هارون. (ط٤). القاهرة: مكتبة الخانجي.
- أبو تمام، حبيب بن أوس. (د.ت). ديوان أبي تمام، شرح الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد عبده عزام، ج٢، دار المعارف، القاهرة، ط٢.
- ابن ثابت، حسان. (١٩٩٤). ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم وتعليق عبدأ علي مهنا، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الثعالبي، أبو منصور. (١٩٨١). التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلوة، الدار العربية للكتاب، ط٢.
- جامع الكتب الإسلامية، المحاضرات في اللغة والأدب، ١/١٠١،
<https://ketabonline.com/ar/books/٨٦/read?page=١٠١&part=١#>
- حاج، يحيى بشير. (٢٠٠٨). منتديات الجلفة، الموقع الإلكتروني:
<https://www.djelfa.info/vb/archive/index.php/t-٦٦٦٤٣.html>
- ابن حبان، محمد بن أحمد. (د.ت). روضة العقلاء. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. (١٣٩٠). فتح الباري بشرح صحيح البخاري. محمد فؤاد عبد الباقي. (ط١). القاهرة: المكتبة السلفية.
- الحجيلان، عبد العزيز بن محمد. (٢٠٠٢). خطبة الجمعة وأحكامها الفقهيّة. (ط١)، دار ابن الجوزي.
- ابن حميد، صالح. (١٤١٩). مقدمة توجيهات وذكرى، (ط٣). مكة المكرمة: دار التربية والتراث.
- ابن حميد، صالح بن عبد الله. (١٤١٩). منهج في إعداد خطبة الجمعة، الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية.
- الحوفي، أحمد. (د.ت). فن الخطابة، القاهرة: دار نهضة مصر.
- دروس للشيخ عائض القرني، على الرابط: https://books.islam-db.com/book/%D٨%AF%D٨%B١%D٩%٨٨%D٨%B٣_%D٨%A٧%D٩%٨٤/

- D٨%B٤%D٩%٨A%D٨%AE_%D٨%B٩%D٨%A٧%D٨%A٦%D٨%B٦_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٢%D٨%B١%D٩%٨٦%D٩%٨A/٧٧٤٧
- الدسوقي، السعيد شعبان. (١٤٤٥). علم الخطابة وفن الإلقاء، ط١، مكتبة المتنبي، الدمام.
 - الذهبي، محمد بن أحمد. (١٩٩٣). تاريخ الإسلام. تحقيق عمر عبد السلام التدمري. بيروت: دار الكتاب العربي.
 - الذهبي، محمد بن أحمد. (١٩٨٥). سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣.
 - ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد. (٢٠٠٤). لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط١.
 - السبت، خالد بن عثمان. (٢٠٢١). أعمال القلوب، مؤسسة العلم والتأصيل، ط٢.
 - السديس، أحمد. (٢٠٠٣). منبريات، مجموعة خطب متنوعة، ط١، مدار الوطن، الرياض.
 - السلامي، محمد المختار. (١٩٩٩). القسم في اللغة في القرآن، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
 - الشافعي، محمد بن إدريس. (٢٠٠٥). ديوان الشافعي، اعتنى به عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت، ط٢.
 - الشريم، سعود بن إبراهيم. (٢٠٠٣). الشامل في فقه الخطيب والخطبة، ط١، دار الوطن، الرياض.
 - الشنطي، محمد. (٢٠١٠). مقدمة الخطابة، فن التحرير العربي، ط٨، دار الأندلس، حائل.
 - شوقي، أحمد. (.). الشوقيات، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م، مج٢، ٣٩/٤.
 - الشوكاني، محمد بن علي. (١٩٩٣). نيل الأوطار. تحقيق عصام الدين الصبايطي. (ط١). القاهرة: دار الحديث.
 - ابن أبي طالب، الإمام علي. (٢٠٢١). ديوان الإمام علي، دار الغد الجديد، جمع وتعليق أحمد محمد شتيوي.
 - ابن العبد، طرفة. (٢٠٠٣). ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به حمدو طماس، دار المعرفة بيروت، ط١.
 - أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم. (.). ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.
 - الغنيم، إبراهيم عبدالرحمن. (١٩٩٦). الصورة الفنية. (ط١). الشركة العربية للنشر والتوزيع.
 - ابن فارس، (١٩٨٣). الصحابي في فقه اللغة، ط١، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
 - الفرزدق، همام بن غالب. (د.ت). ديوان الفرزدق، تحقيق علي فاعور، (ط١)، بيروت، دار الكتب العلمية.
 - الفوزان، عبد الله بن صالح. (١٤٣٣). منحة العلام في شرح بلوغ المرام، ط٤، دار ابن الجوزي، الرياض.
 - القرطبي، محمد بن أحمد. (١٩٦٤). الجامع لأحكام القرآن. تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. (ط٢). القاهرة: دار الكتب المصرية.
 - القيرواني، ابن رشيق. (١٩٨١). العمدة في محاسن الشعر. محمد محيي الدين عبد الحميد. (ط٥). بيروت: دار الجيل.



- المتنبي، أحمد بن الحسين. (د.ت). ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- المعري، أبو العلاء. (١٩٩٠). ديوان أبي العلاء. المنتخب من اللزوميات، مركز الأبحاث والدراسات، دمشق، ط١.
- المقدسي، عبد الغني. (١٩٩٨). عمدة الأحكام من كلام خير الأنام ﷺ. (ط٢). دار ابن خزيمة، الرياض.
- المقدم، محمد أحمد إسماعيل. (٢٠٠٧). عودة الحجاب، ط١٠. دار طيبة. توزيع دار الصفوة.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني. (د.ت). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- المنجد في اللغة العربية المعاصرة، (٢٠٠٨). ط٣. دار المشرق، بيروت:
- النجدي، محمد الحمود. (١٤٢٨). النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، ط٨، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت.
- نجيب، أحمد قبش بن محمد. (د.ت). مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج. (١٩٥٥). صحيح مسلم. محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الواعي، توفيق، (١٩٨٧). الخطابة وإعداد الخطيب، ط١، مكتبة الفلاح، الكويت.
- وهبة، مجدي؛ والمهندس، كامل. (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. (ط٢). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.